المبحث الأول

الحضارة تعريفها وخصائصها

وخصائص الحضارة الإسلامية

وخصائص الحضارة الغربية

"..إنها القوة العجيبة التي تشع من العقيدة الجديدة (الإسلام)
ومن الدولة التي أقامتها هذه العقيدة والتي نمت
في كل اتجاه وأنتجت حضارة موحدة إلى حد يدعو
إلى الدهشة وذلك رغم الاختلاف الشديد بين البيئات
والمستويات الثقافية التي ازدهرت عليها."

فرانشيسكو كابرييلي

١ - مفهوم الحضارة

لفظة "الحضارة" نراها قديمة قدم العربية يقول إسماعيل بن حماد الجوهري (ت. ٣٩٣) في صحاحه الحضارة (بالكسر) الإقامة في الحضر. عن أبي زيد: وكان الأصمعي يقول الحضارة بالفتح قال القطامي:

ومن تكن الحضارة أعجبته ❖ فأي رجال بادية ترانا[١]

الحضارة مشتقة من مادة ح ض ر كما اشتق من نفس المادة هذه الكلمات التي لها صلة قوية ب"الحضارة": الحضر (بفتح الوسط) و الحضرة (بسكونه) والحاضرة والحاضر.

---

١) إسماعيل بن حماد الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق احمد عبد القادر العطار، الطبعة الثالثة، بيروت ١٤٠٤، ج ٢، ص ٦٣٣؛ محمد بن مكرم أبي الفضل جمال الدين ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت بلا تاريخ، ج ٤، ص ١٩٧؛ محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٦، ص ٤٨١.

الكل يدل على معنى له مناسبة قوية مع "الحضارة": فالحضر (بفتح الوسط) والحضرة (بسكونه) والحاضرة كلها خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[1] كما أن الحضر يأتي بمعنى خلاف البدو والحاضر خلاف البادي. وجاء الحاضر في حديث: **ولا يبيع حاضر لباد**[2] بمعنى المقيم بالمدن والقرى.[3]

فاللفظ قديم ببنيته اللفظية ودلالته تلك لكنه جديد باعتبار مفهومه الحديث فإنه اكتسب مدلولا جديدا صار بذاك المدلول الجديد عنوانا لأهم مواضيع علم الاجتماع كما أنه بذاك المعنى القشيب أخذ موقعه بين تلك الكلمات التي تدل على أشمل المعاني الغريزة الجامعة. ولشمولية معانيها وأهميتها صارت مجالا واسعا يتسابق في تحديد مداخله ومخارجه وتعيين مضامينه وأطره فهوم الأذكياء وفحول العلماء. وهي في مدلولها الجديد الذي أشرنا إليه آنفا تدل ـ أو يتداعى منها بمجرد أن تلفظ بها ـ على أهم ما يهم حياة الإنسان فردا أو مجتمعا، فجل جوانب حياته -إن لم نقل كلها- له صلة بمدلول الكلمة الجديد إما دخولا فيه بكونه جزأ منه و عنصرا هاما من عناصره الأساسية أو له علاقة ـ قوية كانت أو ضعيفة ـ بذاك المدلول.

---

١) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٤، ص ١٩٧.

٢) البخاري محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح**، البيوع/٧٠.

٣) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٤، ص ١٩٧.

فإذاً ما هو المفهوم الجديد لهذه الكلمة التي طالما انشغل به الكثير من علماء العلوم الاجتماعية وعلماء الإسلام عامة ومن الذين يهتمون بالكلمة أكثر من غيرهم من علماء علم الاجتماع خاصة؟

علماً منا أن تحديد هذا المفهوم ـ الذي لنا صلة قوية به عبر بحثنا هذا ـ من أهم الآليات التي تعيننا على ما نروم الوصول إليه من النتيجة كما أننا بذاك التحديد والتبيين لا نكون ممن يخبطون خبط عشواء أو يسيرون على متن عمياء.

ولكن أرى من واجب الأمانة العلمية أن أبوح باعتراف جميل وهو أنى لم أتمكن ـ أثناء محاولتي للكشف عن ماهية "الحضارة" ككونها مصطلحا علميا حديثا حام حول تحقيق ماهيتها كثير من علماء علم الاجتماع والتاريخ وغيرهم ـ من أن أدخل أعماق المراجع الأصلية والمصادر الرئيسة للموضوع لأن تحقيقها بجميع مالها وفيها وعليها و بكل ما منها واليها خارج من حدود بحثنا الذي نحن فيه لأن قصارى القول فيه أن تحديد ماهية الحضارة من آليات موضوعنا وليس من أساسياته. فهو بهذا الاعتبار بحث هامشي يسير في الهامش و لا يكون عنصرا أصليا داخلا في صلب الموضوع ولا ركنا رئيسا من هيكل البحث. فعندئذ نكون معذورين في النقل ممن ليسوا من فرسان هذا الميدان بل مثلهم مثلي حيث كنا جميعا من المتفرجين عليه من الهوامش و الناظرين إليه من الحواشي.

فهيا بنا نذكر بعضا من التعاريف التي أورده البعض في تعريف

الحضارة:

ينقل د. عدنـــان زرزور في تقديمه للكتاب القيم لشيخه المرحوم مصطفي السباعي من روائع حضارتنا عن أشفيتسر هذا التعريف للحضارة: "التقدم الروحي والمادي للأفراد على السواء"[1] ويرى المتفكر الفرنسي جورج باستيد (George Bastide) أن الحضارة " التدخل الإنساني الإيجابي لمواجهة ضرورات الطبيعة، تجاوبا مع إرادة التحرر في الإنسان وتحقيقا لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته ورغباته وإنقاصا للعناء البشري"[2] ولنا تحفظ على هذا التعريف لأن هذا التعريف إنما يمكن أن يكون تعريفا للمعنى المصدري أي العمل أو السلوك الحضاري. أما الحضارة بمعنى الأثر الحاصل بالمصدر - وهو الذي نراه مدارا للنقاش والاختلاف بين المهتمين بتحديد الحضارة - فهذا التعريف بمنعزل عنه، ويدل على ما قلنا بعض من تلك التعاريف التي ذكرت للحضارة. فمنها ما قيل إن الحضارة "ثمرة التفاعل بين الإنسان و الكون والحياة"، [3]

وقيل إن الحضارة " نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من

---

١) عدنان زرزور تقديم من **روائع حضارتنا** لمصطفي السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت بلا تاريخ، ص ٣١.

٢) محمد فتحي عثمان، **القيم الحضارية في رسالة الإسلام** الدار السعودية للنشر و التوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٠٥، ص ١٥-١٦.

٣) محمد سعيد رمضان البوطي، **منهج الحضارة الإنسانية في القـــرآن**، دار الفكر، دمشق ١٤٠٥، ص ١٩.

إنتاجه الثقافي"، [1]

وقيل إن الحضارة في مفهومها العام " سلوك ونظام وقيم ومعان وأسس ومبادئ ومنظومات وطبيعة حياة يزخر بها مجتمع ما وتسيطر على مجريات الأحداث فيه يدعمها ويحافظ على بقائها عمل متصل وفعالية عالية مرتفعة يسهم فيها كل إنسان قادر متأهل بقدر طاقته وتأهيله"، [2]

وقيل... وقيل...وقيل...

نحن لا نملك في هذه العجالة -وقد قدمنا عذرنا فيما سبق- الإحاطة بجميع أو أكثر ما قيل في تعريف الحضارة. كما لا نمتلك من سعة الوقت والآليات ما نناقش به هذه الآرآء والأقوال التي سردناها فوق وبيان الصواب أو الأحسن منها حسب ما نراه، رغما من أننا نرى - والله اعلم - انطلاقا من الإطلاقات الشائعة بين أهل العلم لكلمة "الحضارة" في البحوث والدراسات العلمية أن التعريف الثاني منها من الحسن بمكان. كما لا ننسى أن ما قيل - الذي نقلناه أخيرا - في بيان مفهومها العام أيضا من التحقيق والإحاطة والشمول بمكان.

ولكن نرى أن الأولى في تعريف الحضارة هو التعريف الجامع لكل أفرادها المانع لجميع أغيارها وهو كما يلي:

---

١) السباعي، من روائع حضارتنا، ص ٤٥.

٢) محمود محمد سفر، **دراسة في البناء الحضاري**، من سلسلة كتاب الأمة ينشرها رآسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية بدولة قطر، الطبعة الأولى، ص ٢٥-٢٦.

الحضـــارة: المجموعة الحاصلة في الامتداد الزمني والمكاني من العلوم والمعارف والثقافات والمعتقدات والآداب والفنون الجميلة واتجاهات الحياة والصناعات والمؤسسات التي ينعكس منها على الصعيد الجماعي قيم ومبادئ وسلوكيات وأنماط حياة لدى القائمين عليها و الآخرين.

فهذا التعريف يتضمن جميع تلك العناصر التي يتشكل من مجموعها هيكل أية حضارة إنسانية لأن جميع تلك الأمور التي ذكرناها في ثنايا التعريف لا يمكن تصور أية حضارة بدونها، فالحضارة ليست عبارة عن أي شيء واحد منها فقط فمثلا لا العلوم وحدها حضارة ولا الثقافة وحدها حضارة ولا القيم وحدها ولا السلوكيات و لا الآداب ولا الفنون الجميلة وحدها حضارة بل كل واحد منها جزء أساس في تكون البنية الحضارية، وصرح الحضارة إنما يقوم بتفاعل جميع أجزائه تفاعلا إيجابيا متراصة، متشابكة، متمازجة، متداخلة وهذه التفاعل والتشابك والتمازج والتداخل بين الأجزاء الحضارية عبر قيام صرح الحضارة هي التي تحصل الكيان الحضاري. كما نرى ذلك بصورة بارزة في أحداث الحياة اليومية .

بينما لا ننسى أن من الوضوح بمكان أن مدلول الكلمة الجديد لم ينفصل تماما عن مدلولها القديم وبين كلا المدلولين مناسبة ظاهرة.

٢- عناصر الحضارة

إن الحضارة ليست حدثا يوميا أو نشاطا قبليا أو فاعلية محصورة في حدود المدينة الفلانية أو الشعب الفلاني بل هي تتعدى كل تلك الأمور بكثير وتحيط دائرة أكبر وأوسع من تلك الحدود الضيقة بكثير فهي إذن تقتضي أمورا أكثر وأوسع من هذه الحدود المحددة بكثير فما هي تلك الأمور الأساسية التي لا تكون أية فاعلية اجتماعية بدونها حضارة؟ وما هي تلك الأجزاء التي تتوقف ولادة الحضارة ونشأتها ونموها وحياتها عليها و يتسنى لنا أن نسميها بعناصر الحضارة؟

المسئلة بطبيعة الحال اختلافية فبينما ترى أن ويلل درانت وهو الخبير بشؤون الحضارات يرى أن عناصر الحضرة أربع وسنذكرها عنه ترى مالكا بن نبي وآخرين يرون أنها ثلاث وهم فيما بينهم أيضا يختلفون ما هو هذه الثلاث؟ ولا يعنينا تلك الاختلافات سوى قدر علاقتها بموضوعنا. ونرى أن عناصر الحضارة تنقسم إلى قسمين: قسم منها أولي أساسي منها تتكون الحضارة وهي تشكل المادة الأولى والتربة الأساسية للحضارة. وقسم منها ثانوي يخرج إلى الوجود من تفاعل العناصر الأولية. فحينما يعد ابن نبي عناصر الحضارة ثلاثا فإنما يعد العناصر الأولية الأساسية التي هي المادة الخامة للحضارات كلها ولا يوجد لها لون حضاري أو صبغة حضارية أو تركيب حضاري خاص بل الكل تنشأ منها بعد أن تتلقح نشاطاتها الحضارية. وحينما يعدها ويلل أربعا فإنما هي تلك العناصر الثانوية التي لقحت ببذور أية حضارة ما.

ومن ذلك التلقح ينشأ الكيان الحضاري وتتكون الحضارة شيئا فشيئا ثم تبدأ المؤسسات الحضارية تترعرع حاملة طابعها الحضاري و لونها وسمتها الحضارية الخاصة بها.

ونرى الدقة والإحاطة فيما ارتآه **مالك بن نبي** رحمه الله (ت. ١٩٧٣) في عناصر الحضارة في كثير من كتاباته وهو أن العناصر الأساسية للحضارة **الوقت والإنسان والتراب**.[1] فمهما قلبنا الأمر نجد أن الحضارة لا تستغني عن هذه الأمور الثلاث وأنه لا يمكن أن تجري أية فاعلية حضارية بدون هذه العناصر الثلاث.

نرى أن هذه الكلمات الثلاث أدق وأجمع ما يكون في التعبير عن عناصر الحضارة فلسنا مع الدكتور **محمد سعيد رمضان البوطي** مهما ادعى أن التعبير بالإنسان والكون والحياة أدق.[2] وإن قبلنا أن التعبير بالكون أجمع من التعبير بالتراب.

فأما الإنسان فهو القوة المبدعة المدبرة والمخططة المنسقة لتلك النشاطات الحضارية أو التي ستتحول غدا إلى معالم حضارية هامة وبتلك القوة الفعالة (الإنسان) تنصهر الأحداث في بوتقة الوقت آخذة بعض مكوناتها من العنصر الترابي ثم تأخذ طريقها فيما بعد إلى أن تتكون صورة حضارية.

---

١) مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الطبعة الخامسة، دمشق ١٩٨٩، ص ٣٢.

٢) انظر البوطي، **منهج الحضارة الإنسانية في القرآن**، ص ٢٠-٢١.

الإنسان قوة فعالة في سبيل تحقيق الحضارة من ناحيتين:

الناحية الأولى: الإنسان بما خوله الله من قدرات مختلفة وقابليات عديدة وكفاءات متنوعة كان المحرك الأول لعجلة الحضارة. فالنبوغ الإنساني والعبقريات البشرية المختلفة كان ويكون لها الدور الكبير في سبيل تحقق البنية الحضارية على وجه هذه البسيطة.

الناحية الثانيـــة: إن جميع تلك الأعمال والجهود التي تشكل البذور الأولى للحضارات وجميع تلك النتائج والمعطيات الحضارية التي تستهدف من الحضارة إنما تدار وتجرى من طرف الإنسان. فبدون الإنسان لا يمكن أن يتحقق أي عمل حضاري وهو المركز الذي يدور في فلكه أنشطة العنصرين الآخرين حتى يتأتى لهما أن يكونا عنصرين أساسيين للحضارة.

وأما العلم والمعرفة والثقافة والمبادئ والمعتقدات والقيم فهي ليست عناصر حضارية بل هي المحركة للقوة الأولى - الإنسان - كي تأخذ موقعها في الدور الحضاري لأن تلك القوة الأولى - الإنسان - إذا لم تمتلك من هذه المحركات القدر الكافي لتحريكها في النشاط الحضاري ولدفع طاقاتها الحضارية إلى أن تنقلب إلى واقعيات حضارية ملموسة محسوسة تبقى عنصرا خامدا غير فاعل. كما أن دور الإنسان البدائي كان كذلك، حيث لم يمتلك من تلك العوامل التي تحركه للدفع الحضاري القدر الكافي فبقي عاطلا غير ناشط، مهملا غير فاعل. ولم يستطع أن يؤسس كيانا متكاملا يستحق أن يطلق عليه الكيان الحضاري.

وأما التراب فهو أيضا عنصر أساسي في تكون البنيان الحضاري من ناحيتين:

الناحية الأولى: بمساحته الامتدادية لأن الحضارة لون اجتماعي ليس فرديا فهي محتاجة إلى مساحة واسعة لأن تلك النشاطات الإنسانية الباقية في دائرة ضيقة من الأرض لا تحمل طابعا حضاريا أبدا إلا إذا فتقت كمامها المكاني وصارت تنمي وتنتشر في المساحات الواسعة. وهذا التوسع عبر الأماكن المختلفة هي التي تتيح للأنشطة الإنسانية أن تتحول مع الزمن من فاعلية فردية محددة قصيرة المدى إلى عمل اجتماعي يكون جزأ هاما يحتل موقعا هاما في الهيكل الحضاري. ونرى أن من الأسرار الكامنة خلف انتشار الحضارة الإسلامية في الزمن القليل عبر القارات المختلفة هو ما تيسر لها من التوسع المكاني أي التراب الواسع الذي تبطن بذور الأنشطة الحضارية فأخذت تؤتي ثمارها الطيبة في اقرب وقت ممكن.

والناحية الثانية: الثراء الحضاري الذي يشتمل التراب عليه فهو أيضا من أساسيات التكون الحضاري فإذا لم يكن في تربة ما تلك الثروات اللازمة للعطاء والاستثمار الحضاري فمن الصعوبة بمكان أن تنجح تلك الحضارة في عطائها العالمي وحتى في تكون حجيراتها الأساسية أيضا. فمن كلتا الناحيتين التربة عنصر حضاري هام لا غناء عنها أبدا.

وثالث الأثافي من عناصر الحضارة **هو الوقت**: فأي عمل أو نشاط

يحتوى على طاقة حضارية إذا لم يتح له امتداد زمني يلتقي عبره في مختلف المستويات بمختلف الناس ومختلف الأجيال لم يتعد أن تنتفي وتموت آثاره أيضا فور ما انتهى وقته ولا يقدر له أن يأخذ موقعه الإيجابي في البنيان الحضاري مهما علا قدره ورفع شأنه. ففي الامتداد الزمني يأخذ تلك الأعمال النافعة الرشيدة التي تحتوي على طاقة حضارية موقعها اللائق بها وبه ينتشر في الأبعاد الإنسانية والأبعاد المكانية الدروس والعبر والحكم التي تتضمنها تلك الأعمال والتي ستقتدي بها وستدرسها الأجيال.

والناحية الثانية في التأثير الحضاري للوقت: الاستثمار الكافي للوقت من أبناء الحضارة، إن أية أمة ما إذا لم تعرف بكاملها قيمة وقتها ولم تنسقه في النافع المفيد لها لا يمكن أن تلحق في مشوارها الحضاري بالآخرين. فالوقت - كما قيل سلفا- كالسيف إن لم تقطعه قطعك. إن استثمار الوقت ونشر وعي ذلك الاستثمار من أهم الأمور المحركة لعجلة الحضارة نحو الكمال. فإن عدم استثمار أي قوم أو شعب للوقت على الوجه النافع السديد يدل على عدم تطلع له وطموح نحو مستقبل مشرق، مما ينبئ عن موت روح الأمل فيه، كما يدل على كسله ودنائة همته ورضائه بالعطالة والبطالة. وهذه الأمور الأربع تحمل دلالة قوية على فقدان العقلية الحضارية عند تلك الأمة وغياب الوعي الجماعي منها. فأية أمة أرادت لنفسها العطاء والرخاء إنما تهتم أول ما تهتم بتثمير الوقت ونشر وعيه بين أفرادها ونجد اليوم ذلك الوعي ضاربا جذوره في

المجتمعات الغربية بحيث يقطفون ثماره على أتم وجه. ولذلك تجد بينهم من مثل تلك الكلمات التي تعرب عن حرصهم البالغ على الزمن فيقولون مثلا "**نحن نسابق مع الزمـــن**"، كما تجد مثلا الأمريكيين حينما يتجهون إلى تنفيذ مشروع ما يهتمون أكثر ما يكون بتنفيذه في أقصر وقت ممكن اغتناما للوقت. فإذا كان المشروع يقتضي أسبوعا من الزمن يركزون عقولهم و يكثفون جهودهم كي يتموا تنفيذه في خمسة أو أربعة أيام . ووجدنا في ألمانيا أن الناس في الساعة السادسة صباحا (يعني قبيل طلوع الشمس بنحو خمس وأربعين دقيقة) كلهم قيام يتهيئون للذهاب إلى العمل في ساعته المحددة، وكذا وجدنا في أمريكا أن الناس يأخذون في الاستعداد للذهاب إلى العمل بدأً من الساعة الخامسة والنصف، كي يذهب كل إلى عمله في ساعته المحددة بلا تفويت للوقت ولا تأخر. وهذا من الاستثمار النافع للوقت فيأخذون ثمراته على الوجه الأفضل. وبذلك صاروا الآن يسوسون الدنيا ويضعون لها "النظام العالمي الجديد". فمن جد وجد ومن جهد سعد، **وأن ليس للإنســـان إلا مـا ســعى**. مع أنك ترى المسلمين رغما من أن الله برمج لهم بالصلوات الخمس مثلها أوقاتهم على أحسن وجه وهداهم إلى أفضل طرق استثمار الوقت لا يزالون في النوم إلى الساعة الثامنة أو التاسعة أو العاشرة. ثم يستيقظون ويتهيئون للعمل ببطء وتأن فلا تجد الكثير منهم في ساحة أعمالهم إلا في الساعات المتأخرة. فكيف يلحق المسلمون بالآخرين؟ **إن الله لا يظلم الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون. ما أصـــابتكم**

من مصيبة فبما كسبت أيديكم.

ومن هذه الجملة ترى للأسف الشديد في البلاد الإسلامية أن المشروع الذي يكفي لتنفيذه خمسة أيام لا ينفذ إلا شهرا. وهذا ما جعل المسلمين في أخريات القوم مع أن نبيهم الحكيم عليه صلوات الله وتسليماته كان نبههم على استثمار الوقت وحذرهم من الإسراف فيه قبل هؤلاء بقرون كثيرة: **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ.**[1]

وهذه المقارنة أيضا تعطينا فكرة في مدى استثمار البلاد المتقدمة للوقت: ففي بعض البلاد ساعات العمل الرسمية (وقت دوام العمل المقرر من طرف الحكومة) ثمان ساعات فبعض البلاد إنما يأخذ منها عطاء عشرين دقيقة والبعض أربعين دقيقة وبعض البلاد كتركيا يأخذ عطاء ساعتين. وأظن أن أكبر المعدل لعطاء ساعات العمل الرسمي في البلاد الإسلامية هو الساعتان. و في بلاد شرق أوربا معدل العطاء أربع ساعات وفي أمريكا وبريطانيا وفرنسا المعدل يرتفع إلى ست ساعات أما في اليابان فمدة العمل الرسمي تسع ساعات والعطاء أيضا تسع ساعات. فهذا النموذج البسيط يعطينا فكرة واضحة عن الدور الحضاري الهام للوقت.

العقلية الحضارية الواعية تتجنب سواء على الصعيد الفردي أم على الصعيد الجماعي عن الإسراف في الوقت إلى أقصى الحدود وتهتم

---

١) رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه وأحمد بن حنبل.

اهتماما زائدا بتخطيط الوقت وتنسيقه الحكيم وتنظيمه الرشيد كي يستثمر على أكمل وجه وأتمه. وهو ما فعله المسلمون الأوائل في استثمار أوقاتهم على أتم وجه وأحسنه. فقال قائلهم:

إذا مر بي يوم ولم أكتسب هدى ❖ ولم أزدد علما فما ذاك من عمري

٣- خصائص الحضارة

مما لا مرية فيه أن لكل حدث فردي أو اجتماعي ولكل نظام طبقي أو دولي خصائص تخصها وميزات تميزها عن غيرها. وإن ما يجعل الشيء شيئا ويجعله مستقلا عن غيره له كيانه الذاتي المستقل هو خصائصه الموجودة في حدود بنيته وإلا كان كل شيء شيئا واحدا، غير متميز بعض الأشياء عن البعض الآخر. فالحضارة كما أنها حدث اجتماعي له مقوماته وعناصره وظروفه وأجزائه وأفراده وأنواعه، كذلك هي كيان له ذاتياته ومشخصاته ومميزاته وملامحه وخصائصه وثمراته وعطائه. وبحسب اختلاف تلك الخصائص والمميزات لكل حضارة تختلف ثمرات وعطاء كل حضارة عن الآخرة وبذلك تباين آثار هذه عن آثار تلك.

فمن الملامح العامة للحضارات:

كونها اجتماعية باعتبار نشأتها وقيامها لأن عمل أي فرد ولا حتى عمل قبيلة ما لا يسمى بمفرده حضارة مهما كان تأثيرهما بالغا في التكون الحضاري.

ومنها كون انتشارها عاما فلا تعرف حدودا ولا سدودا ولا تقف في مسيرها عند زمان ومكان إلى أن تكتمل أجلها المسمي لأن لكل أمة أجلا. **وتلك الأيام نداولها بين الناس.** فمع أن لكل حضارة بعض الخصائص المميزة لها عن الأخرى - كما سنذكر- لكن إن الحضارات أيا ما كانت لا يمكن أن تحبس من طرف الناس في حدود معينة، أو تتقيد بالبقاء في أزمنة خاصة لأن الحضارة حدث اجتماعي نشأ عن التجمع الإنساني وتفاعله مع بعض المعارف والأفكار والقيم والمبادئ من غير تقيد بالزمان والمكان ففي مسيرتها عبر الزمان والمكان أيضا لا تتقيد بتلك المحددات الزمانية والمكانية.

ومنها كون كل منها تحمل طابعا خاصا، فطابع حضارة الإسلام الخاص مثلا توحيديتها وطابع الحضارة الغربية العام وضعيتها... وقس.

٤- خصائص الحضارة الإسلامية ومعطياتها

إن الحضارة الإسلامية من تلك الحضارات التي طال عمرها مع الزمن؛ فهي وإن لم نقل أطولها زمنا على الإطلاق لكنا نستطيع أن نقول من بين أطولها عمرا ولا تزال ولله الحمد على قيد الحياة -وإن شاخت و ضعفت بما خانها أبنائها وهانها أنجالها وتركوا التشبث بمعالمها الغراء ومبادئها السمحاء وقيمها الزهراء، وأخذوا يلهثون خلف غيرها، فجوزوا بما عملوا جزاء موفورا، **والجزاء من جنس العمل.**

نوعية الحضارة الإسلامية كيان مستقل له ما يحدده من

الخصائص وله أيضا ما يجمعه مع الحضارات الأخرى من الملامح العامة التي ذكرناها. أهم خصائصها عدا تلك الأزمنة والأمكنة التي قامت فيها - لو عدت كل من الأزمنة والأمكنة خصيصة لها باعتبار أنها قامت فيها ولم يشاركها في ذلك الحين حضارة أخرى موازية لها قامت فيها- هي كما يلي ؛ علما منا أن الثلاث الأخيرة من سمات الحضارة الإسلامية متداخلة إلى أقرب حد ممكن، حتى يمكن أن يفهم بعض القراء تكرارا في البعض أو غنية بالبعض منها عن البعض الآخر ولكننا نلاحظ أن في كل منها سمة حضارية غير الآخر ولو تداخلت أو تقاربت:

أ) **الصبغة التوحيدية**

لا شك أن جوهر الحضارة الإسلامية هو الإسلام وأن جوهر الإسلام هو التوحيد[1] فالتوحيد هو الصبغة الأساسية التي كانت الحضارة الإسلامية منصبغة بها من أول يوم ولادتها إلى أيام شيخوختها - وهي أيامنا هذه التي تعيش الحضارة الإسلامية فيها أسوأ فتراتها- فذلك اللون التوحيدي سائد على جميع مرافق الحياة الحضارية عبر العالم الإسلامي كله لأن ذلك اللون التوحيدي به لا بغيره قيام الإسلام، ويسود على جميع المعالم الإسلامية والشعائر التعبدية والقيم الخلقية فيه روح التوحيد. وذلك الروح التوحيدي سرى في جميع ما وجد في عصور الإسلام من النظم والمؤسسات والعادات والتقاليد

---

١) إسماعيل راجي الفاروقي- لويس لمياء الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض ١٤١٩/١٩٩٨، ص١٣٢.

والسلوكيات والآثار والفنون الجميلة وحتى نجد ذلك الروح ساريا في كثير من الملل والنحل التي وجدت في عصور الإسلام السالفة فإذا ما فات اللون التوحيدي فات الإسلام أيضا فلا إسلام بلا توحيد كما لا يوجد اليوم توحيد بلا إسلام فلا يتطرق الشك في التوحيد إلى من كان ينتمي إلى هذه الحضارة أو ساهم فيها...والمسلمون - مهما يكن مستوى ثقافتهم- هم على ثقة مطلقة بأن الحضارة الإسلامية تنطوي على جوهر وأن هذا الجوهر قابل للمعرفة والتحليل والتوصيف وذلك هو التوحيد[1].

ونرى أن الصبغة التوحيدية وإن لوحظت في جميع الأمور التي تستمد الحضارة حيويتها منها لكنها في البعض أظهر وأبهر كما نرى أن مفعول ذلك البعض في التكون الحضاري أيضا أكثر وذلك:

مثل العقائد -وهي أهمها- ومثل العبادات التي لعبت ولا تزال تلعب دورا غير قليل في نشر الحضارة الإسلامية غير ناسين هنا تلك الشمولية التي أكسبها الإسلام للعبادات بحيث تشمل جميع مصالح الحياة ومكاسبها الطيبة وتشمل جميع الأعمال التي تفعل خدمة للفرد والأسرة والمجتمع، حتى ما تجعله في فيّ امرأتك - كما سنذكر ذلك - ولم تلاحظ العبادات في المنظور الإسلامي يوما ما محبوسة بين جدران المعبد منعزلة عن الحياة كما ترى ذلك في عبادات الديانات الأخرى فهذه الشمولية هي التي جعلت للعبادات دورا كبيرا في ترسيخ الحضارة الإسلامية ونشر معالمها بين ربوع العالم. فكل عبادة إسلامية تتضمن

---

١) المصدر السابق.

لوناً حضارياً وسمةً حضاريةً وروحاً حضارياً وفي كل عبادة دافع وسائق حضاري كامل. فمثلا إن تأثير الحج الذي يأتي المسلمون إليه من كل فج عميق ويتعارفون به في ظل تلك المشاعر المقدسة ويفيدون ويستفيدون بعضهم من بعض. إن تأثير الحج في نشر القيم والعلوم والمعارف التي لا تقوم قائمة الحضارة إلا بها تأثير كبير له دور عظيم في نشر الحضارة الإسلامية حتى إن الكثير من المؤلفات القيمة التي صارت مرجعا لأهل العلم فيما بعد من مثل تفسير **الكشاف للزمخشري** (ت ٥٣٨) إنما ألف في ظل الكعبة تيمنا بها واستفادة من تلك الروحانية العظيمة التي تحيط بها وتسبل على زوارها، عدا ما يمتلكه مؤتمر الحج من الدافع الحضاري العظيم.

ومثل الأخلاق فإن من أهم الأرضيات التي تبذر بذور الحضارة فيها وتنميها بتربتها الطيبة و تسقيها بمياهها العذبة لا جرم هو الأخلاق فأخلاق الأمم لها الدور الكبير في بث العقلية الحضارية لدى أمة ما واللون التوحيدي في أخلاقيات الإسلام ظاهر فمثلا الذم البالغ في الإسلام للعجب والكبر وفي مقابلته مدح التواضع نابع من تفرد الله وتوحده بالكبرياء والعظمة كما ترى ذلك باديا في الحديث الصحيح: "**العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته**"[1]. وسنتناول بإذن الله تعالى السمة الأخلاقية للحضارة الإسلامية.

ومثلا إن الآثار و الفنون الجميلة التي أجيد صنعتها عبر التاريخ

---

١) مسلم بن الحجاج القشيري، **الجامع الصحيح**، كتاب البر والصلة والأدب/٣٨.

الإسلامي آثار التوحيد فيها ظاهرة أيضا فمثلا مآذن وقباب المساجد التي تتحلى بأحسن السمات الجمالية والتي تمثل أجمل الفنون الإسلامية تحتوى على الرموز التوحيدية المآذن بارتفاعها منفردة كأنها سبابة الأرض ارتفعت إلى السماء تشير إلى توحيد خالقها والقباب بهيئتها الانحنائية كأنها راكعة لربها وكذلك تجنب القسم الكبير من الفن الإسلامي عن صور وتماثيل الإنسان والأحياء لها دلالتها القوية على مدى التمسك بروح التوحيد والابتعاد عن كل ما لها مساس بالشرك ولو كان فيما سلف من الزمن حيث اتخذت فيما سبق تلك الصور والتماثيل آلهة تعبد من دون الله.

فالتوحيد هو ذلك المبدأ الذي يمنح الحضارة الإسلامية هويتها - كما سيتبين ذلك من خلال ما نذكره من الأمثلة- ويربط جميع مكوناتها معا ليجعل منها كيانا عضويا متكاملا نسميه حضارة. وفي ربط العناصر المتفرقة يقوم جوهر الحضارة - وهو التوحيد في هذه الحال- بطبع تلك العناصر بطابعه الخاص. ثم يعيد تكوينها بشكل يتناسق مع العناصر الأخرى ويدعمها. ولا يقوم الجوهر ضرورة بتغيير طبيعة تلك العناصر، بل يحولها ليصنع منها حضارة ويعطيها صفاتها الجديدة التي تكوِّن تلك الحضارة. ويختلف مدى التحول بين ضئيل وجذري اعتمادا على مدى علاقة الجوهر بالعناصر المختلفة ووظائفها. وقد برزت هذه العلاقة في أذهان المسلمين الذين كانوا يتابعون ظواهر الحضارة...ووجدوا فيه المنبع الرئيس والمصدر الأساس الذي يحكم جميع الظواهر في الحضارة

الإسلامية.[1]

ومثل السياسة: فإن مفعول التوحيد وأثره الطيب في سياسة الخلفاء والملوك والأمراء أيضا كان واضحا، وخصيصا ذلك الدور الذي لعبه العلماء عند الأمراء والخلفاء في تيسير الأمور بالبر والهدي. هذا الدور ما كان دورا يستهان به أبدا في نشر الحضارة الإسلامية وضرب جذورها في أعماق البلاد. فاستشعار العلماء بالمسؤولية في نصح ولاة الأمور إنما كانت نابعة من كيان الإسلام التوحيدي الذي يشعر المرء فيه بعظمة الخالق أكثر من أي دين آخر، كما أن قبول الخلفاء و الأمراء لذلك بتبسط وانشراح صدر أيضا كان نابعا من نفس الكيان فمثلا نجد خير مثال لذلك ما رواه **الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨)** أن **الأصمعي** قال: دخل **عطاء بن أبي رباح** (ت١١٧) على **عبد الملك** (ت ٨٦) وهو جالس على السرير و حوله الأشراف وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته فلما بصر به عبد الملك قام إليه فسلم عليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال يا أبا محمد حاجتك؟ قال يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق دونك بابهم فقال له أفعل ثم نهض وقام فقبض عليه عبد الملك وقال يا أبا محمد إنما سألتنا حوائج

---

١) المصدر السابق.

غيرك وقد قضيناها فما حاجتك؟ قال مالي إلى مخلوق حاجة. ثم خرج فقال عبد الملك هذا وأبيك الشرف هذا وأبيك السؤدد![1]

وكذا لما ولي عمر بن عبد العزيز بعث إلى محمد بن كعب ورجاء بن حيوة وسالم بن عبد الله فقال لهم قد ترون ما ابتليت به وما قد نزل بي فما عندكم فقال محمد بن كعب اجعل الشيخ أبا والشاب أخا والصغير ولدا فبر أباك وصل أخاك وتعطف على ولدك وقال رجاء ارض للناس ما ترضى لنفسك وما كرهت أن يؤتى إليك فلا تأته إليهم واعلم أنك أول خليفة تموت. وقال سالم اجعل الأمر يوما واحدا صم فيه عن شهوات الدنيا واجعل آخر فطرك فيه الموت فكأن قد. فقال عمر لا حول ولا قوة إلا بالله .[2] فبقدر ما تحمل هذان المقطعان من دلالة على دور روح التوحيد في تأصيل الحضارة الإسلامية يحملان كذلك الدلالات العظيمة على ما يتمتع به روح الحضارة الإسلامية من النزعة الإنسانية التي سنتناولها بعد.

إن مفعول عقيدة التوحيد في سياسة الخلفاء وتوجيههم إلى صالح الأمة كان عظيما وما كان بالشيء المستهان به ترى ذلك واضحا في هذا المقطع التاريخي الذي له دلالة كبيرة ولكن عند أولي الأبصار:

"وروى ابن عساكر عن إبراهيم بن المهدي قال كنت يوما عند

---

١) الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناووط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت ١٤٠٢/١٩٨٢، ج ٥، ص ٨٤.

٢) ابن كثير إسماعيل بن عمر أبي الفداء، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، ١٤١٨/١٩٩٨، ج ١٢، ص ٦٩١.

الرشيد فدعا طباخه فقال أعندك في الطعام لحم جزور؟ قال نعم ألوان منه. فقال أحضره مع الطعام. فلما وضع بين يديه أخذ لقمة منه فوضع في فيه، فضحك جعفر البرمكي فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه فقال مم تضحك؟ قال لاشيء يا أمير المؤمنين ذكرت كلاما دار بيني وبين الجارية البارحة. فقال بحقي عليك لما أخبرتني به قال حتى تأكل هذه اللقمة، فألقاها من فيه وقال والله لتخبرني. فقال يا أمير المؤمنين بكم تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوم عليك؟ قال بأربعة دراهم قال لا والله يا أمير المؤمنين بل بأربعة ألف درهم. قال وكيف ذلك قال؟ قال إنك طلبت من طباخك هذا لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده فقلت لا يخلون المطبخ من لحم الجزور فنحن ننحر كل يوم جزورا لأنا لا نشتري لحم الجزور من السوق، فصرف في ثمن الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم ولم يطلب أمير المؤمنين لحم الجزور إلا هذا اليوم قال جعفر فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة فهي على أمير المؤمنين بأربعمائة ألف. قال فبكى الرشيد بكاء شديدا وأقبل على نفسه يوبخها ويقول هلكت والله يا هارون وأمر برفع السماط من بين يديه ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر فخرج فصلى بالناس ثم رجع يبكي وقد أمر بألفي ألف (ميليونين) تصرف إلى فقراء الحرمين في كل حرم ألف ألف صدقة وأمر بألفي ألف يتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشرقي وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة. ثم خرج لصلاة العصر ثم رجع

يبكي حتى صلى المغرب ثم رجع فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال ما شأنك يا أمير المؤمنين باكيا في هذا اليوم؟ فذكر أمره وما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته وإنما ناله منها لقمة فقال أبو يوسف لجعفر هل كان ما يذبحونه من الجزر يفسد أو يأكله الناس قال بل يأكله الناس فقال أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية وبما يسره الله عليك من الصدقة في هذا اليوم على الفقراء وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم وقد قال الله تعالى **﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾** (الرحمن ٤٦) فأمر له الرشيد بأربعمائة ألف ثم استدعى بطعام فأكل منه فكان غذاؤه في ذلك اليوم عشاء.[1]

نعم وإن أمكن أن يورد بعض المؤاخذات على بعض ما في هذا الحدث التاريخي ولكن له في الوقت نفسه دلالات عظيمة أيضا على مدى المفعول الذي تركه دين التوحيد والعدل في نفوس المسلمين الأوائل وساستهم الذين أدوا أدوارا عظيمة في تأسيس الحضارة الإسلامية. فترى في يومنا هذا يوم حقوق الإنسان والمساواة - على ما يزعمون- يصرف الساسة الديموقراطيون الأحرار المتقدمون (!) الذين هم بمعزل عن الإسلام وتعاليمه السمحة الأموال الجزيلة الكثيرة على شهواتهم بلا أي خشية من الله ولا إلقاء بال على بؤس الشعوب ومسكنتها. فمثلا صرف الديموقراطيون في وزارة داخلية أحد من البلاد الإسلامية بمناسبة الاحتفال بعيد رأس العام الميلادي تشبها بسادتهم

---

١) المصدر السابق، ج ١٤، ص ٣٣-٣٥.

الغربيين حوالي عام ١٩٩٤ على شرب الخمر فقط ما يقدر تقريبا بمأتي ألف جنيه مصري، مع أن قريبا من مليونين ونصف من سكان ذلك البلد يعيشون في الأبنية المبنية على القبور لفقر ذات يدهم ...

وكذلك يستبين واضحا عمق روح التوحيد في كيان الحضارة الإسلامية من تلك الخطب التي ألقاها خلفاء وملوك المسلمين حينما كانوا يبدؤون بوظيفتهم الجديدة ونختار من ذلك جزأ من خطبة **سليمان بن عبد الملك** أول خطبة ألقاها بعد ما بويع له بالخلافة فقال:

الحمد لله الذي ما شاء صنع وما شاء منع وما شاء وضع و من شاء أعطى ومن شاء منع ... يا عباد الله اتخذوا كتاب الله إماما وارضوا به حكما واجعلوه لكم قائدا...[1]

وقس على هذا ما لم نذكره من تلك المجالات الحضارية التي ترى آثار التوحيد فيها بادية بارزة.

ب – النزعة الإنسانية

ونعي بذاك جانبين هامين من المجالات التي أتى بها الإسلام عطفا ورأفة على الإنسانية ورفعا لمكانتها وتساميا بقدرها فكشاهد صدق وبينة رشد للجانب الأول ترى بنظرة خاطفة تلقاها على نصوص الكتاب والسنة كثرة المفاهيم والأوامر التي أتت بخير وبر ورحمة عظيمة للإنسانية، فمن هنا ترى سيادة المعاني السامية والمبادئ الكريمة التي فيها صلاح الناس وخيرهم وبرهم وفيها الرحمة بهم والشفقة والرأفة عليهم

---

١) المصدر السابق، ج ١٢، ص ٦٤٢.

وفيها هداهم وتقاهم على تلك المساحات الواسعة والأقاليم الفسيحة التي تأقلمت بالطابع الإسلامي. فهذه النزعة الإنسانية من أهم خصائص الحضارة الإسلامية ولا ترى تلك النزعة الإنسانية ثابتة في أية حضارة أخرى ثبوتها في الإسلام، فثبوتها في الإسلام ليس مجرد حبر على ورق، بل جميع الملابسات والأحداث والتنظيمات والسلوكيات وحتى السياسات الدولية والمناسبات الديبلوماسية التي يديرها الإسلام إنما تدور وتحور[1] في فلك الخير والرشد والرحمة انطلاقا من آيات كثيرة وأحاديث نبوية شهيرة في الموضوع. فمن تلك الآيات الموجودة بكثرة في الفرقان الحكيم: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[3]، ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ۞ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[4]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾[5]، ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى

---

١) من الحور وهو الرجوع.

٢) النحل، ١٦/٨٩-٩٠.

٣) الإسراء، ١٧/٩.

٤) نفس السورة، ١٧/ ٢٥-٢٦.

٥) نفس السورة، ١٧/ ٨٢.

وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[2]. نعم لو ذهبنا نستقصي جميع تلك الآيات التي تأمر الإنسان بالخير والبر والهدى لاضطررنا إلى ذكر قسم كبير من القرآن هنا فلنتكف بهذا.

فانطلاقا من تلك الأوامر القدسية الربانية ترى الرحمة والبر والهدى والوفاء وسائر معاني الخير سائدة على أعمال أولي الأمر من سواس المسلمين وقوادهم. خذ من معاملة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم لأسرى بدر ومعاملته لأهل مكة حينما فتح مكة، إلى توصيات **أبي بكر وعمر** رضي الله عنهما لقوادهما حينما كانا يودعانهم إلى معارك القتال[3]، إلى معاملة **عمر بن عبد العزيز** مع أفراد الأمة وولاته، إلى معاملة **صلاح الدين الأيوبي** حينما فتح القدس مع أسرى النصارى هناك، إلى معاملة **السلطان سليمان** المشهور بالقانوني مع جاليات اليهود الذين طردهم النصارى و شردوهم من الأندلس من أوطانهم، إلى معاملة قضاة المسلمين بالعدل والرحمة مع أبناء الشعوب المسلمة، إلى تلك التوصيات الفقهية الحكيمة الرحيمة التي وجهها

---

١) النمل، ٢٧/٧٧.

٢) العصر، ١٠٣/١-٣.

٣) فإن أردت المزيد من تفاصيل تلك الخطب والوصايا الإنسانية الرحيمة فراجع **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة** لمحمد حميد الله وكذا كثير من كتب التاريخ من أمثال **البداية والنهاية** لابن كثير و**سير أعلام النبلاء** للذهبي و**تاريخ الأمم** للطبري وغيرها تجد فيها البغية فإن حدود هذه العجالة لا تتسع لأكثر مما ذكرناه.

صاحب أبي حنيفة أبو يوسف رحمهما الله تعالى في كتابه الخراج إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد حول معاملة الحكومة الإسلامية مع أهل الذمة (فإنها وثيقة تحتوي على أفضل الحريات الدينية التي لم تحلم الإنسانية بمثلها إلى ذلك اليوم) إلى... إلى... ففي كل هذا ترى رحمة عجيبة بالإنسان وترى عدلا كاملا شاملا وترى سياسة الرشد والبر مطبقة بدقة واهتمام.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن انتشار الأوقاف والمؤسسات الخيرية بين ربوع العالم الإسلامي قديما وحديثا انتشارا يفوت العد والحد أيضا من آثار تلك النزعة الإنسانية التي يتمتع بها الكيان الحضاري الإسلامي. فمثلا في التاريخ الإسلامي الطويل ما ترى مجالا خيريا إلا وترى أن وقفا ما أجرى فيه نشاطاته الخيرية فتوسع المسلمون في تكثير أنواع الأوقاف التي يمكن وقفها لفائدة المجتمع، فإلى جانب المنازل والأراضي والضياع والآبار والعيون، هناك أيضا أوقاف لتوفير مياه الشرب وفتح الطرق، إلى جانب وقف الأشياء اللازمة في بعض المهمات من وقف المصاحف والسلاح والكراع والكتب العلمية وبعض الأشياء المنزلية كالفأس والقدوم والمنشار والقدر، إلى وقف المدارس ودور العلم والمكتبات والمستشفيات والربط والخانات[1] والمساجد والفنادق والتكايا والزوايا وبيوت الفقراء والسقايات (تسبيل

---

١) يحيى محمود بن جنيد الساعاتي، **الوقف والمجتمع**، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض ١٤١٧، ص ١٢، ١٦.

الماء في الطرقات العامة للناس) والمطاعم الشعبية وبيوت الحجاج في الحرمين وحفر الآبار في الفلوات لسقي المواشي والزروع والمسافرين وأمكنة المرابطة على الثغور التي يجد فيها المجاهدون بغيتهم من مأكل ومشرب وسلاح وذخيرة والوقف لإصلاح الطرق والقناطر والجسور ووقف أراضي المقابر أو لشراء أدوات تجهيز الميت ومؤسسات تربية اللقطاء واليتامى ومؤسسات المقعدين والعميان والعجزة ومؤسسات تحسين أحوال المسجونين ومؤسسات لتزويج الشباب والشابات العاجزين عن نفقة الزواج ومؤسسات لإمداد الأمهات المرضعات بالحليب والسكر، إلى غير ذلك من الأوقاف الكثيرة البالغ عددها ثلاثين نوعا.[1] وعدا تلك الأوقاف التي تجري تلك النشاطات الخيرية الواسعة في شتي المجالات التي يحتاجها الإنسان تجد في مجال خدمة الحيوانات أيضا مجموعة كثيرة من الأوقاف التي حصر مجال خدمتها على الحيوانات فقط فخذ مثلا من وقف تحمل علف الحمر أو الخيول الهرمة إلى الأوقاف التي تجري فاعلياته على سائر الحيوانات التي لا أحد يعلفها ويسقيها إلى أوقاف تهتم بالطيور وإلى غير ذلك. كان المسلمون يفعلون جميع ذلك فإن نبي الإسلام عليه صلوات الله وسلامه قد بلغ أمته **أن في كل ذات كبد رطبة أجرا**[2]. وهو عليه الصلاة والسلام كان يبلغ أمته أن

---

١) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، ص ١٢٥-١٢٧.

٢) البخاري، كتاب الأدب/ ٢٧.

رجلا إنما غفر له بسقيه من البئر بخفه كلبا كان يلهث مـــن العطـــش[1]. نعم هكذا كان آباؤنا الأولون وبذلك استطاعوا أن يؤسسوا أعظم وأفضل الحضارات الإنسانية:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ❖ إذا جمعتنا يا جرير المجامع

كما لا نزال نرى في هذه الأيام التي هي أحلك أيام أمة الإسلام لا سياسة فقط بل علما وعملا وعقيدة وأخلاقا أيضا- رغما من أن قيم الرأسمالية القاسية الأثيمة ومبادئها القاتمة اللئيمة تحدد وتقدم القيم لكثير من أبناء المسلمين أنفسهم و لهم غناء بالغ عنها بما في الإسلام وبدأت تسيطر على تفكيرات ونزعات كثير من المسلمين فرغما من كل ذلك ترى في طول العالم الإسلامي وعرضها قسما غير قليل من المؤسسات الضخمة التي لها ميزانيات كبيرة تقدر بملايين الدولارات تقدم خدمات خيرية كبيرة من مواساة زمنى ومداواة مرضى وإشباع جائع وإفطار صائم وكسوة عار وتسديد دين وكفالة تعليم فقير وغيرها. كما نجد درسا بالغا في ما يقدمه في رمضان المبارك أهل المملكة العربية السعودية - التي لازالت قيم الإسلام السمحة تحدد فيها كثيرا من اتجاهات حياة كثير من الناس عامة- من التسابق على أنواع الخير والبر وخصيصا تفطير الصائم: ترى في كل مسجد يشبع مئآت الناس الفقراء بأنواع الطعام الشهية من لحم وأرز ومرق وماء وتمر وحلويات وغيرها. إن في ذلك لمشهدا إنسانيا رائعا ولكن لمن تبصر واعتبر. إنه الإسلام

---

١) نفس المصدر.

يستطيع أن يفعله ويوجه أبنائه إليه لا غير!

وأذكر كنموذج ثان على ما لا يزال موجودا بين المسلمين من خير وبر ما أنجزته جمعية خيرية من المشاريع عام ١٤٢٠ هـ في المملكة العربية السعودية:

١- وزعت على الطلاب والطالبات طوال العام (٢٥٠٠٠) حقيبة مدرسية تحتوي على جميع ما يحتاج إليه الطالب والطالبة من أدوات مدرسية،

٢- صدقة الشتاء وشملت نوعين من أنواع الصدقة وهي:

أ- بطانية الشتاء وقد وزعت (٧٠٠٠) بطانية،

ب- كسوة الشتاء وقد وزعت أربعة آلاف كسوة.

٣- تم تفطير(٣٧٧٠٠٠) شخص طوال شهر رمضان،

هذه المشاهد الإنسانية التي لا يزال الإسلام دفاقا بها بحمد الله ومنه كثيرة في غالب بلاد المسلمين. وحينئذ يمكن أن تعلم علم اليقين عظمة تلك النزعة الإنسانية التي تتمتع بها الحضارة الإسلامية كما يتيسر لك عندئذ أيضا أن تقدر لتلك الطاقات الحضارية الهائلة التي يتمتع بها الإسلام قدرها.

وأما الجانب الثاني هو ما أعطاها الإسلام للإنسان من كرامة ورفعة شأن: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ

---

١) الإسراء، ١٧/ ٧٠.

فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[1]، وهذا التكريم الإسلامي للإنسان يتجلى في بعض النواحي نجملها في جانبين:

١-الحريات الواسعة التي أتى بها الإسلام الموائمة لفطرة الفرد والمجتمع من الحريات الدينية إلى الحريات الاقتصادية والسياسية والتعليمية والتنقلية السياحية وغيرها فجميع حريات الإنسان تلك مضمونة في الإسلام بلا إفراط ولا تفريط.

٢- حماية سائر الحقوق بالمصطلح الجديد فجميع حقوق الإنسان (لا المسلم فقط بل الذمي أيضا في جميع المجالات) المشروعة الموافقة مع الفطرة السليمة و التي يقبلها العقل المستقيم - وليس فيها إضرار بالنفس والمال والعرض والدين والعقل والآخرين- محفوظة ومحمية في الإسلام كل على حسبه وليس فيها تضحية بأي جانب للآخر كل وفق فطرة الله التي فطر الناس عليها.

هذا الاعتناء الوفير بالإنسان من كلا الجانبين طابع عام للإسلام يتأقلم به كل من تنفس ذلك الجو الإسلامي النزيه بلا خبث طوية ولا سوء نية فصار هذا الطابع العام سمة وخصيصة للكيان الحضاري الإسلامي عبر القرون وتأثر به كثير من المشركين فأسلموا فمثلا استعمل الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إسماعيل بن عبد الله المخزومي وكان حسن السيرة على إفريقية وبلاد المغرب فأسلم في ولايته

---

١) التين، ٤/٩٥.

على بلاد المغرب بحسن سيرته خلق كثير من البربر.[1]

ج- السمة الاجتماعية التي تجعل الفرد من الأمة فردا اجتماعيا وعضوا جماعيا:

إن من أهم خصائص وسمات الحضارة الإسلامية هو انتشار روح الإخاء والمحبة والتراحم والتعاطف والتوادد والتساند والتعاون والتكافل الاجتماعي بين أعضاء الأمة بحيث أن الفرد في المجتمعات الإسلامية مهما ابتعد عن أوطانه وأهاليه لا يحس بوحدة وتوحش وحتى غربة طالما سادت على تلك المجتمعات روح الإخاء والرحمة الإسلامية لأنك تجد في الإسلام حشدا كبيرا من الآيات والأحاديث النبوية يأمر الجامعة الإسلامية بحب الآخرين وبرهم ومعونتهم وأداء بعض الوظائف إليهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[2]. وفي الحديث الشريف: **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**[3]، **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**[4]، **لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى ههنا (يشير إلى صدره) بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله**

---

١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٦٥٩.

٢) الحجرات، ٤٩/١٠.

٣) البخاري محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان/٧.

٤) مسلم بن الحجاج القشيري، **الجامع الصحيح**، كتاب البر والصلة والأدب/١٧.

وعرضه[1] إلى آخر ما في الأحاديث التي تقوي الصلات الاجتماعية بين أعضاء الأمة ومن هنا ترى الإسلام أتى في مصطلحه الخاص بمجموعة من الحقوق التي لا تكاد الإنسانية تعرفها إلا في ظل الأديان السماوية الحقة. (أما إنسانية القرن الواحد والعشرين فبعيدة منها بمراحل وكلما يزداد تطورها الحضاري يزداد بعدها من تلك الحقوق التي أتى بها الإسلام) فيتكون من إصرار الإسلام البالغ على نشر وترسيخ تلك الحقوق والوظائف الاجتماعية في المجتمع عقلية اجتماعية في الجامعة الإسلامية تهيمن على الجو العام السائد على مشارق العالم الإسلامي ومغاربها ويتربى أعضاء الأمة الناشئون في ذلك الجو الإنساني النزيه على روح الإخاء والتساند والتعاون ورعاية وظائفه نحو الآخرين. وهذا هو ما يجعل الفرد المسلم أكثر تفاعلا مع سائر أفراد الأمة وتفاهما معهم ويجعله أيضا حينما يرى النصح والتساند والمعونة من الآخرين أكثر تفانيا في خدمة الآخرين والأداء بواجبه نحوهم:

﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾[2]، ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

---

١) مسلم، البر/ ١٠.

٢) النساء، ٤/٣٦.

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

فتلك المجموعة الخاصة من الحقوق والواجبات التي أتي بها الإسلام في مصطلحه الخاص والتي تجعل من الفرد المؤمن عضوا اجتماعيا، غير محبوس منعزل، في حدود عالمه الضيق حتى يلجأ إلى مصادقة الكلاب والهرات (كما ترى ذلك في أبناء الحضارة المعاصرة)، تجعل منه عضوا ممتزجا ومنسجما مع المجتمع ومتفاعلا متفاهما معه، تجعل منه عضوا اجتماعيا نشيطا هو يكمل الآخرين كما يكملونه هم، يتم بعضهم بعضا في إكمال ذلك البناء الإنساني الرفيع الذي يرضى الله سبحانه منه أن يكون بنيانا مرصوصا. فتلك المجموعة كما يلي: حقوق الوالدين، حقوق الزوجين، حقوق الأولاد، حقوق الأقارب، حقوق الجار، حقوق الضيف، حقوق الكبير، حقوق الصغير، حقوق المسلم عامة.

هذا عدا تلك الواجبات التي كلف الإسلام الفرد المؤمن بها نحو الآخرين كدفع الصدقات والكفارات والزكوات والنذور والأضاحي لفقراء المسلمين وعيادتهم في مرضهم وتهنئتهم بأفراحهم ودعوتهم للولائم وإجابة دعوتهم وتشييع جنائزهم والتسليم عليهم ورد سلامهم والاشتراك في أعيادهم. فكل هذه الحقوق والوظائف إلى جنب ما يكونه

---

١) الأنعام، ٦/١٥١-١٥٢.

صلاة الجماعة والجمعات والحج من روح التفاعل والتضامن في المجتمع تجعل النزعة الاجتماعية سمة وخاصة حضارية لحضارة الإسلام لا توجد في غيرها بهذا القدر وهذه الطاقة على الإطلاق.

نعم لو ذكرنا تلك الآيات والأحاديث التي تأمر وتبين تلك الحقوق والوظائف الإيمانية لطال بنا النفس وربما يمكن أن يلاحظ البعض علينا أننا بذلك ابتعدنا عن صلب موضوعنا فمن أرادها فعليه بالقرآن الحكيم والأحاديث النبوية. يجد المورد عذبا والنبع ثرا والمعين فياضا ولله الحمد والمنة.

د- النزعة الأخلاقية

إن من محاسن الإسلام أنه - رغما من أنه دين يدعو إلى عبادة الواحد الأحد- نظام جمع بين أحضانه جميع ما له مساس بإصلاح الفرد والمجتمع من نظم العبادات إلى النظم السياسية والنظم الأخلاقية، نظام وازن بين الروح والمادة لا يهتم بأي واحد منهما فقط على حساب الآخر، نظام اهتم بالفرد والجماعة سويا برعاية مصلحة كل في حدوده، نظام اعتنى بالعلم والمعرفة قدر ما اعتنى بالذكر والعبادة، نظام أعلن العداء البالغ على الجهل قدر ما أعلن عدائه لترك العبادة، نظام اهتم بالسعي والعمل كما ندد بالعطالة والبطالة، نظام أعلن حربا شعواء بلا هوادة على جميع المحرمات والمنكرات والفواحش ما ظهر منها وما بطن، نظام أتي بعقوبات مادية شديدة (هي في الوقت نفسه رحمة للعالمين) تحمي الفرد والجماعة من كل الاعتداآت والسيئات وأنواع

الجور والفساد، نظام قدر ما اهتم بعلاقة العبد مع ربه اهتم بعلاقة الإنسان مع بني جلدته، وفي ضمن تلك العلاقات الثنائية والاجتماعية أتى بآداب عالية ومبادئ أخلاقية سامية: خذ من عدم رفع الصوت لكبارنا، وتوقير شيوخنا إلى التسليم على إخواننا حينما نستأذن في دخول بيوتهم، إلى الرحمة على صغارنا ولين الجانب والتواضع والشفقة ومحبة الآخرين...و...و.

ترى الفرقان الحكيم حين يجيز للمسلمين في الفترة المدنية أن يقاتلوا في سبيل تحقيق استقلالهم الذاتي يبين لهم بصراحة ووضوح أن شرط نصر الله لهم إقامتهم لشعائر العبودية الصادقة وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر اللذين هما ملاك كل خير وبر وسلوك حسن فالحجر الأساس لدولة الإسلام التي ستقوم والخميرة الأصلية لها هو كما يلي: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1] ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[2]. فالآية - سواء كانت آية البقرة أو كانت آية الحج[3] - التي أجازت للمسلمين أن يقاتلوا في سبيل

---

١) البقرة، ٢/١٩٠.

٢) الحج، ٢٢/٣٩، ٤١.

٣) انظر محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، دار الفكر، بيروت ١٤٠٩/١٩٨٩، ج ١، ص ١٩٠-١٩١.

استقلالهم وإعادة عزهم ومجدهم وبسط سلطان التوحيد والعدل والحق المطلق على الأرض ترى ظاهرا واضحا من خلال كلماتها الانضباط الخلقي وعدم الاعتداء وتقييد المجتمع -الذي أخذ طريقه إلى النفوذ في العالم بإذن ربه- بالسلوكيات الأخلاقية الحسنة التي يجمعها وأكثر منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فكمثال على بعض ما ذكرنا تدبر هذه الأخلاقيات التي يقدمها للبشرية هذه التوجيهات القرآنية الرشيدة[1] : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۞ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[2]. واقرأ هذين النصين الكريمين كي يأخذ العجب منك كل مأخذ مما أتي به القرآن من جوامع الأخلاق وأساسياتها وكرائمها: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلاَ تَقْرَبُواْ

---

١) انظر حول بعض المجموعات الأخلاقيات القرآن الكريم، البقرة، ٢/١٧٧، آل عمران، ٣/١٠١-١١٠، النساء، ٥/٣٦-٣٨، الأعراف، ٨/٢٦-٣٣، الرعد، ١٣/٢٠-٢٥، النحل، ١٦/٩٠-٩٧، ١٢٥-١٢٨، الإسراء، ١٧/ ٢٣-٣٧، المؤمنون، ٢٣/١-٩، لقمان، ٣١/١٣-١٩، الأحزاب، ٣٣/٣٥، فصلت، ٤١/٣٠-٣٦، الشورى، ٤٢/٣٦-٤٤، الحجرات، ٤٩/١-١٣، المعارج، ٧٠/ ١٩-٣٤.

٢) الفرقان، ٢٥/٦٣، ٦٧، ٦٨، ٧٢.

مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

ثم تأمل بحسن دقة وعمق حكمة هذه الإرشادات النبوية الحكيمة التي هي رشفة من ديمة كي ترى عن كثب جمال وكمال السمة الأخلاقية التي أسبلها الإسلام على كيان حضارتها الغراء: **ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة**[2] **إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسا يوم القيمة أحاسنكم أخلاقا وإن من أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلسا يوم القيمة الثرثارون** (كثيرو الكلام) **والمتشدقون** (الذين يتطاولون على الناس في الكلام ويبذون عليهم أي يفحشون القول لهم) **والمتفيهقون** (المتكبرون)[3]، **اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة وخالق الناس بخلق حسن**[4]، **إن خياركم أحسنكم أخلاقا**[5] **إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيمة من تركه الناس اتقاء شره**[6] ، **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو**

---

١) الأنعام، ٦/١٥١-١٥٢.

٢) الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى، **الجامع الصحيح**، البر والصلة/٦٢.

٣) الترمذي، البر والصلة/٧١.

٤) الترمذي، البر والصلة/٥٥.

٥) البخاري، الأدب/٣٩.

٦) البخاري، الأدب/٣٨.

ليصمت[1] إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا.[2] الحياء والعي (قلة الكلام) شعبتان من الإيمان. والبذاء (الفحش في الكلام) والبيان (كثرة الكلام) شعبتان من النفاق.[3]

هذا إلى جانب أن الإسلام الحنيف لم يهمل سلوكيات الفرد الشخصية وملابساته مع نفسه أيضا بلا حدود ولا قيود فترى يبدأ حتى من دخول المرء الخلاء، إلى غسله يديه قبل الأكل، إلى نظافة أسنانه وفمه، إلى نظافة جسده، إلى تطيبه وتنظفه حينما يخالط المجتمع، إلى ضحكه وكلامه، إلى مشيه ومنامه... إلى... إلى... فترى الإسلام أتى في كل تلك الميادين بآداب سامية حنيفة فطرية، ولو ذهبنا نذكر الأحاديث على كل ذلك لبعد بنا الشقة.

فلتحسين شبكة العلاقات الأخلاقية على كل المستويات من جانب والسلوكيات الشخصية من جانب آخر أتى الإسلام بأوامر ترهيبية شديدة إلى جانب ما أتى به من كثير من الأوامر الترغيبية أيضا فلا تكاد ترى جانبا أخلاقيا أو خلقيا إلا وترى للإسلام فيه توجيهات ناصعة حكيمة ونصائح مشرقة رشيدة فلهذا من الخطأ البالغ والافتراء الشنيع المضلل أن يحكم على الإسلام بأنه عقيدة وجدانية فقط أو مجموعة من تلك الأواصر التعبدية المحبوسة في الوجدان فقط أو إنما هي

---

١) البخاري، الأدب/٨٥.

٢) مسلم، البر والصلة/٩.

٣) الترمذي، البر والصلة/٨٠.

مجموعة أخلاقية تنظم الاتصالات الأخلاقية فقط. فالإسلام بريء من كل تلك الانحصارات الباطلة التي قيلت على الإسلام ظلما وعدوانا بل هو يحتوي بتوازن عجيب - بلا طغيان لجانب على حساب الجانب الآخر - علي تنظيم جميع مجالات الحياة بلا انحصار في أي واحد منها.

فهذا البنيان المرصوص المحكم من القيم والأسس والمبادئ الأخلاقية العالمية الجامعة المتوفرة في الإسلام كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها أسبل على كيان الحضارة الإسلامية غطاء من إستبرق الإنسانية فصارت السمة الأخلاقية خصيصة هامة من خصائص الحضارة الإسلامية ولله الحمد والمنة.

ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تقر الحاجة إلى خضوع
ما إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعيةأو قومية
إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني ولكن
الرفاهية.

محمد أسد

٥- خصائص الحضارة الغربية ومعطياتها

إن الحضارة الغربية هي التي تحدد كما كبيرا من اتجاهات حياة الإنسان المعاصر في القسم الغالب من الكرة الأرضية- بما فيه إنسان العالم الثالث- وهي التي تكوّن القسم الغالب من مقومات الحياة الإنسانية اليوم في الشرق والغرب وهي التي تتشكل على وفق مقايسها- غالبا- القيم الإنسانية والأخلاقية كما أن محكومة بغالبيتها العظمى بإدامة حياتها في المجالات السياسية والإدارية والتعليمية والقضائية والديبلوماسية على النحو من المعايير التي تحددها لها تلك الحضارة الغربية رضيت أو كرهت كما أنها صارت المحددة الغالبة للقسم الأعظم من تلك الأمور الأخرى الحيوية كالاتجاهات الفكرية والمقاربات القيمية و الفلسفات الحياتية بله المظاهر اليومية كالمراسلات والأطعمة والأشربة والملابس و أثاثات البيت وحتى أساليب الكلام- التي تلعب دورا كبيرا في حياة جل المجتمعات الحديثة - فترى أن حضارة الغرب من بين تلك

الحضارات الخمس التي بقيت على قيد الحياة[1] هي المهيمنة على كثير من قطاعات الحياة وهذه الحضارة أسست من أول يوم أسست على عدة عناصر أساسية كثير منها يعادى الفطرة الإنسانية وينافي فطرة المجتمع وأهم هذه العناصر المنافية المصادمة للفطرة البشرية هي تشبعها البالغ بالوضعية المركزة على الإلحاد و الجحود ومعاداة الدين حقا أو باطلا وتنشئتها لأبنائها وتربيتهم على روح الجشع والاستعمار والاستغلال والعنصرية اللئيمة وحب الذات والازدراء بحقوق الغير في سبيل تأمين حقوقه[2] وعبودية الشهوات و الملاهي والأموال و الثروات بحيث صارت فلسفة الملاهي ولمّ الأموال هي المعينة لصبغة المجتمعات الغربية ومن حذا حذوها وصارت تلك المقايس المادية هي المسيطرة على روح الحياة واتجاهاته لدى إنسان الغرب ومن تزيا بزيه كما أن من أهم ثمرات تلك الحضارة المشبعة بما تقدم من المساوئ والرذائل أن قد مت للإنسانية طرق المحاربة- أو قل طرق الإفناء والإعدام- مع كثير من تلك المعاني

---

١) إن **آرنولد تونبي** يقول إن الحضارات التي لا تزال على قيد الحياة هي هذه الحضارات الخمس الحضارة الأورثوذكسية والحضارة الإسلامية والحضارة الروسية والحضارة الهندية والحضارة الغربية وهي من بين تلك الحضارات التسع عشرة التي بدأت الإنسانية بالحياة في كنفها أول ما بدأت قبل ستة آلاف سنة و عاش كل واحد منها ردحا من الزمن إلى أجل مسمى ثم مات ولم يبق منها على قيد الحياة سوى الخمس الآنفة الذكر. أنظر آرنولد تونبي Medeniyet Yarglanyor (Türkç. Ufuk Uyan) Yeryüzü Yay. Ýst. Trz. S. 149-150

٢) انظر تحقيقا لأهم معالم الحضارة الغربية مقارنة مع أهم قسمات الحضارة الإسلامية كتاب المقالات التركية لسعيد النورسي Sözler Envar nc. Ýst. 1993 s. 132-133

الإنسانية السامية كالتواضع والتحابب والإيثار والتعاون والرحمة والمؤاخاة الإنسانية والإنفاق في سبل الخير. وقد أدى ذلك إلى فساد المجتمعات فسادا هائلا فقد أصبح الربا التي هي أبشع[1] وأقسى المعاملات الاقتصادية أساس الاقتصاد الحديث، وصار الميسر الذي هو من أرذل وأظلم المكاسب البشرية أحد المجالات الأساسية المفضلة للكسب، صارت التجارة عملا مساويا للفساد والاستغلال وانعدام الأخلاق، وصارت السياسة مناورات لا أخلاقية واستماتة في الوصول إلى السلطة، واختلط العدل بالمصلحة الشخصية، وقيست صلات الناس بالمنافع المادية، وتحولت الحرية إلى الفوضى واللاأخلاقية والتسيب والتعدي على حقوق الناس، وحل التوافق مع المجتمع (سواء كان في الصالح أم في السيئ) محل القيم الأخلاقية، فاختلت بذلك موازين الناس وأدى كل ذلك إلى تحلل المجتمعات وتفككها وإضعافها إلى درجة أصبحت كلمتا الحق والباطل لا معنى لهما في عالم تحكمه المادة فقط عالم أصبح النجاح فيه هو معيار الحق والقوة تصنعه، والغاية تبرر الوسيلة، والالتزام بمبدأ ما جمود وعقم، عالم تحكمه الأطماع والمخاوف ويفتقر إلى صاحب الرأي السديد!!![2] فمن الناحية الأخلاقية هذه هي الثمار التي أهدتها حضارة الغرب للعالم.

---

١) أبشع من البشع: الكريه، الخبيث النفس، الدميم.

٢) زغلول راغب النجار، **أزمة التعليم المعاصر**، الدار العالمية للكتاب إلاسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٦، ص. ١٦

كما أهدت لها (!) جميع وسائل الدمار الجماعي وجميع طرق إبادة الحياة من على وجه البسيطة ترى ذلك بصورة رهيبة مدهشة في ما ذكره الكاتب الفرنسي **روجيه جارودي**:

حسب معطيات عام ١٩٨٥ (أي قبل يومنا هذا بخمسة عشر عاما) أنفق في العام الماضي على التسلح أزيد من سبعمائة مليار دولار أمريكي فيكون الكتلتان الشرقية والغربية ادخرتا في خزائن أسلحتهما أكثر من مليون قنبلة ذرية من ذلك النوع الذي ألقي في هيروشيما. وقنبلة هيروشيما دمرت في آن واحد أكثر من سبعين ألف نسمة ويعني ذلك أن بإمكانية تقنية القرن العشرين أن تدمر سبعين مليار نسمة أي أضعاف ما يعيش اليوم على وجه البسيطة بخمسة عشر ضعفا.[١] فمن هنا نرى البعض من أبناء تلك الحضارة يعلن وشك إنهيارها وهي في عنفوان شبابها:

نرى **روجيه جارودى** بعد ما قدم فيما ينوف على مأتى صفحة من كتابه "**الاتحاد الأمريكي طليعة الدمار**" كميات الخسائر الإنسانية الفادحة في ما سوى عالم الغرب التي تقشعر منها الجلود وتنكمش منها العقول وتشمئز منها القلوب تلك الخسائر التي منيت بها إنسانية القرن العشرين من جراء ثقافة الغرب وحضارته التي ابتلى بها أربعة أخماس العالم نرى **جارودى** يصرخ و يعلن: "كيف يتسنى لنا أن نفك رقابنا من هذه المنظمات الجائرة الغاشمة (و الحضارة الغربية) التي لا تكون عاقبتها إلا

---

١) Roger Garaudy, Islam ve insanligin Geleceq cev.cemal Ayelin Pinar Yay 2.bax, Islanbul 5.27.

الموت والدمار؟ فإننا أمام خيارين لا ثالث لهما إما الانعدام والفناء وإما أن نتغير حتى يغير الله ما بأنفسنا.[1] كما ترى نفس الكاتب يشرح الخيار الإيجابي من الخيارين المتقدمين بما أفاده هذا السؤال الذي ألقاه هو في مقابلة صحفية أجريت معه: كيف نختار الطريق الحكيم حتى يمكن للإنسان أن يعيش مع الطبيعة من ناحية ومع الإنسان الآخر من ناحية ثانية ثم بتوافق تام مع الله سبحانه؟.[2]

إن إنسانية القرن العشرين لم تسعد بمعطيات الحضارة الغربية بل كانت متألمة إلى أكبر حد مما أتى بها عليها من الويل والدمار والذل والوبار ومما أفقدتها من كثير من ميزاتها البشرية وكمالاتها الإنسانية لأنها جعلت الإنسان كماكينة مبرمجة تتحرك حسبما وضع فيها من البرامج. ترى الغالبية العظمى من الذين يعيشون تحت ظلال الحضارة الغربية برمجوا على العمل في المصانع أو أي محل آخر والذهاب والإياب حسبما حدد لهم والتردد على الملاهي والملاعب والأكل والشرب والسفاد وجر النفع لأنفسهم إن وجدوا لذلك سبيلا. البرنامج الذي أتحف إلى الإنسان المعاصر هو هذا فقط وأما ما سوى ذلك من الأعمال الخيرية والبر فلا أبدا -إن لم يبرمجوا عليه من مثل ما ترى في بعض

---

1) Roger Garaudy, A. B. D. Çöküün Öncüsü (Türkç. Cemal Aydn) Nehir yay Bas. Ýst. 1997 s. 213

٢) حيدر عبد الكريم الغدير، **المسلمون والبديل الحضاري**، سلسلة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية ١٤١٢-١٩٩٢، ص ٢٧-٢٨.

المؤسسات الخيرية- فنسيت الفضائل و تركت سبل البر والإحسان واندرس في المجتمعات جميع مسالك الخير والسمو الإنساني وهجرت الأخلاقيات الحسنة والشمائل الكريمة. فمن جراء كل هذا عانت الإنسانية من تلك الحضارة الراقية الزاهرة!؟ ولا تزال تعانى في كثير من جوانب بنيانها أشد الآلام المادية والمعنوية ونوجز بعضا من تلك الأضرار الفادحة التي لحقت بالإنسانية بسببها فيما يلي (وقد سبقت إشارة مجملة إلى البعض منها):

١-الخواء الروحي والفراغ المعنوي

إن الخواء الروحي أي خلو الحضارة مما يسعد الروح ويطمئنه هو الذي يضيق الخناق من الإنسانية ويجعله في ضيق مميت وعناء بالغ وسوء ذريع وشر منتشر مما سبب ويسبب المشاكل الكثيرة على مستوى الفرد والمجتمع في جميع تلك البلاد التي اتخذت معالم تلك الحضارة لها شعارا. وجعلت معطياتها لها دثارا. وذلك الخواء بما تخفيه تلك الحضارة في باطنها من الإلحاد والجحود الناتجين من الوضعية التي هي أهم وأبرز المعالم الفكرية لتلك الحضارة فانعكست منها آثارها السيئة على واقعيات حياة الفرد والمجتمع والدولة.

الإنسان الغربي ومن كان على شاكلته رغما من الإمكانيات الكثيرة والرفاهية التامة والرخاء البالغ إلى أقصى الحدود غير سعيد اليوم أبدا ويبحث حثيثا عما عساه أن يسعده من الملهيات والمغريات ويجاري

مع هواه في جميع ما تشتهيه وتهواه. ولكن أنى له السعادة؟ فتراه كثيرا ما يلقي بنفسه تفاديا[1] مما يكابده من ذلك الخواء الفاقر في مغامرات شتى ويغامر[2] بنفسه في أحداث كبرى. إن كثيرا مما يرتكبونه من الأعمال التي هي أشبه بالمغامرة من أي شيء آخر وإن راحوا يسمونه بالرياضيات أو غيرها فهو في واقع الأمر إنما يرتكب هربا و تفاديا من ذلك الفراغ والخواء وبحثا عما عساه أن يسعده ويخفف شيئا من آلامه وشقائه.

وهذا الخواء الروحي كان نتيجة لحدث هام لم ينجح فيه الحضارة الغربية من أول يوم أسست فيه إلى يومنا هذا، ولا تزال فاشلة فيه. كما أنتج هذا الناتج أيضا ولدا أشئم: فالأول الذي نتج عنه هذا الخواء الروحي هو فشل هذه الحضارة الذريع في التوازن بين الحالة المادية والوضع الروحي للإنسان وعدم سعيها لذلك أبدا، فاهتمت هذه الحضارة بجميع عناصرها ومؤسساتها وقيمها وثقافتها ومبادئها وتعاليمها وأفكارها وقوانينها ودساتيرها بالمادة فقط على حساب المعنى فجاء يوم طغى فيه المادة بأسوأ صورة على الروح ومبتغياته فبقي من الكيان الإنساني أكوام من الجثث بلا روح ولا حياة فانتنّت الجثث، وفسدت الهواء، و طارت جراثيم ذلك الطغيان إلى مشارق الأرض ومغاربها. فصارت تزداد يوما فيوما بحيث عم البلاء والوباء الأرض كلها وطم، وغلب الظلام وتم! فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

١) تفاديا: توقيا وتجنبا.

٢) يغامر: يلقي بنفسه في غمرة أي شدة.

فلنذكر البعض من تلك الآثار السيئة الناجمة عن هذا الخواء الروحي المنتشرة في عرض البلاد وطولها:

أ- عدم التوازن بين الروح والمادة

إن من الثوابت التي لا يماري فيها اثنان ولا ينتطح فيها عنزان ويكاد أن يقع عليها الإجماع هو أن الحضارة الغربية لم تستطع إلى يومنا هذا أن تحقق التوازن بين الروح والمادة يفصح عن ذلك هذه الاعترافات التي ننقلها من الغربيين أنفسهم - وصاحب الدار أدرى بها - فلننقل بعض تلك الاعترافات كي يزداد القارئ بصيرة واطمئنانا بأننا لا نقول ما نقول جزافا أو رجما بالغيب.

عدم التوازن بين الروح والمادة والفشل في اطمئنان الروح وترك الجانب الروحي مهملا غير معتد به من أهم سمات الحضارة الغربية - كما علم مما أسلفنا - فلذا ترى اليوم تعلو صيحات الألم والقلق في شتى الأصعدة الغربية وتزداد تلك الآلام والشقوى يوما فيوما. تراهم يبدون قلقهم لا على مستوى مصير الفرد فقط بل على مستوى مصير الشعب الغربي عامة. والذين فهموا حقيقة الخطر فأخذوا يستصرخون ويستغيثون إنما هم عقلائهم الذين أفاقوا برهة[1] من الزمن من غيهم وسكرهم. وأما غالبية الشعب فهي لا تزال تمادي في باطلها وترتبك أكثر فأكثر في أوحال ضلالها وشقائها بلا علم ولا فهم لما سيؤول إليه

---

١) البرهة: بفتح الباء وضمها الزمان الطويل أو أعم.

أمرها. وإليك بعضا من اعترافاتهم وما يظهر عيانا مدى قلقهم على مصير شعوبهم:

١ - يبدو القلق السائد على الغرب واضحا حينما يعرب **محمد أسد** النمساوي اليهودي الأصل سبب إسلامه حيث يقول:

"في ذات يوم من أيام شهر أيلول من سنة ١٩٢٦ كنت راكبا مع زوجتي في قطار برلين تحت الأرض فوقعت عيني اتفاقا على رجل أنيق الملبس جالس قبالتي. كان على ما بدا لي تاجرا تبدو عليه آثار النعمة والثراء، على ركبتيه حقيبة صغيرة جميلة وفي إصبعه خاتم ماسي كبير. وأخذت أفكر بتكاسل كيف أن مظهر هذا الرجل الحسن كان يعكس الرخاء الذي كان المرء يقع عليه في كل مكان من أوروبا الوسطى في تلك الأيام: ذلك الرخاء الذي عقب سنوات التضخم التي كانت فيها الحياة الاقتصادية كلها رأسا على عقب، ورثاثة المظهر هي القاعدة. إن معظم الناس كانوا الآن يلبسون جيدا ويأكلون جيدا، ومن هنا لم يكن الرجل قبالتي خلاف غيره من الناس إلا أنني عند ما نظرت إلى وجهه خيل إليّ أنني لم أكن أنظر إلى وجه سعيد، فقد بدا لي قلقا: لا قلقا فحسب، بل شقي بصورة حادة، ترسل عيناه نظرات فارغة إلى الأمام، وزاويتا شفتيه متقلصتان[1] ألما - ألما غير جسماني. وإذ لم أرد أن أكون وقحا، لقد أشحت[2] بوجهي فرأيت إلى جانبه سيدة على شيء من الظروف لقد

---

١) من قلص شفته بمعنى انزوت وشمرت.

٢) أشحت بمعنى أعرضت.

كان وجهها أيضا يعبر تعبيرا غريبا عن عدم سعادتها، كما كانت تعاني أو تفكر في شيء يسبب لها الألم. ومع ذلك كان ثغرها يفتر عما يشبه ابتسامة جامدة لم أشك في أنها لا بد أن تكون عادية لديها وعندئذ أخذت أجيل ببصري في جميع الوجوه الأخرى - وجوه أناس كانوا جميعهم دون استثناء يرتدون الملابس الجميلة ويقتاتون بالغذاء الجيد- وفي كل وجه منها استطعت أن أميز تعبيرا عن الألم الخبيء إلى درجة أن صاحبه بدا و كأنه لا يشعر به.

والحق أن هذا كان غريبا فأنا لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا العدد من الوجوه التعسة[1] من حولي... أو لعلني لم أبحث من قبل عما كان ينطق فيها بمثل تلك الجهارة! كانت الانطباعة قوية إلى درجة جعلتني أذكرها لزوجتي، فأخذت هي أيضا تنظر حولها بعيني رسام حريص اعتاد دراسة القسمات البشرية ثم استدارت إليّ دهشة وقالت: أنت على حق ... إنهم جميعا يبدون وكأنهم يعانون ألم الجحيم..."[2]

٢- ما يعانيه الغرب من الخواء الروحي بلغ مبلغا لا يمكن أن يخفى بعد فلا يجد كثير من عقلاء رجالات الغرب بدا من أن يظهروا قلقهم ويتجرعوا كؤوس تلك الاعترافات المرة بهذه الحالة الخطيرة التي تعيشها أمتهم بين حين وآخر فحينما تسلق **نيكسون** منصب الرياسة

---

١) التعسة من التعس بسكون العين: الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط.

٢) محمد أسد، **الطريق إلى الإسلام**، ترجمة عفيف البعلبكي، مكتبة العبيكان، الطبعة التاسعة، الرياض ١٤١٨، ص٢٤٩-٢٥٠

الأمريكية لم يتحرج من أن يعلن في أول خطاب رسمي له ذلك الخواء الروحي: "إننا نجد أنفسنا أثرياء في البضائع ولكن ممزقين في الروح ونصل بدقة رائعة إلى القمر، وأما على الأرض فنتخبط في متاهات ومتاعب كبيرة"[1]

٣- وهذا هو ديجول رئيس فرنسا السابق يقول: "إن مجتمعاتنا الأوروبية فقدت شيئا ثمينا جداً تحت وطأة تقدمها الضخم، وهو الإنسانية و أعني بها القيم الروحية البشرية العليا فقد قطعت حضارتنا تلك الصلة المعنوية التي تربط البشر بعضهم ببعض. لقد جف شعورنا وتجمدت قيمنا الأخلاقية وانحلت".[2]

٤- وهذا أيضا هو السفير الألماني السابق بالرباط/المغرب دكتوراه في القانون أسلم عام ١٩٨٠ وأخذ اسم مراد، يعرب في كتابه **الإسلام كبديل** الذي أحدث في ألمانيا ضجة كبيرة عن بعض ما تعانيه الشعوب الغربية من الخواء الروحي: "ولنتأمل معا ضحايا ذلك المجتمع الصناعي وقيمه الحيدية المزعومة فحسب: إنهم يتمتعون بكل ما يريدون من الاستقلال الذاتي والحياة المؤمّنة منذ المهد إلى اللحد والحرية أو الإباحية الجنسية التي لا تعرف محظورا أو محرما والمخدرات على اختلاف أنواعها وأذواقها حسب كل مزاج وطلب وأوقات الفراغ والعطلات والإجازات المكفولة قانونيا وكافة الحقوق المدنية التي يحلم

---

١) حيدر الغدير، **المسلمون والبديل الحضاري**، ص ٢٥-٢٦.

٢) المصدر السابق.

بها المرء، لكنهم مع كل ذلك يحسون فراغا هائلا يملأ وجودهم الفعلي ويتوقون إلى الحنان والدفء البشري من قبل الجماعة التي يعيشون معها أو ينتمون إليها وإلى سلطة زعيم روحي..."[1] ولكن أنى لهم ذلك؟

٥- كما نرى محمد أسد* الذي أسلم قبله بكثير عام ١٩٢٦ - وقد ذكرنا الحدث الذي كان سبب إسلامه - يعلن وهو الخبير بالغرب الرضيع من ثديها تلك الحقيقة الثابتة عن الخواء الروحي في حضارة الغرب:

"إن المدنية الغربية لم تستطع حتى الآن (حوالي عام ١٩٥٢) - وحتى الآن عام ٢٠٠٠ وإلى يوم القيامة - أن تقيم توازنا بين حاجات الإنسان الجسمانية والاجتماعية وبين أشواقه الروحية لقد تخلت عن آدابها الدينية السابقة دون أن تتمكن من أن تخرج عن نفسها أي نظام أخلاقي آخر مهما كان نظريا... وإذ كان الغربي يفتقر إلى كل توجيه ديني صادق: فإنه لا يستطيع أن يفيد أدبيا من ضياء المعرفة الذي تسكبه علومه -وهي لا شك عظيمة - فعليه يمكن أن تنطبق كلمات القرآن:

---

١) مراد هوفمان، **الإسلام كبديل**، ترجمة غريب محمد غريب، مكتبة العبيكان، الطبعة الثانية، ١٤١٨، ص ٢٩.

*) له مؤلفات قيمة عن الإسلام وخصوصا ترجمته أو نقول تفسيره القيم للقرآن الكريم في ثلاث مجلدات باللغة الإنجليزية ترجم إلى لغات أخرى أيضا من ميزات ترجمته هذا - رغما من بعض ملاحظاتنا على تفسيره لبعض الآيات - أنه أجاد استعمال رصيده الثقافي المعاصر في تفسيره وله تحقيقات جدية هامة في تفسير كثير من الآيات لا يستغني عنه باحث القرآن.

"مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حولـــه ذهـــب الله بنورهـــم وتركهم في ظلمات لا يبصرون"[1]

ويقول في محل آخر: " لقد كان العالم الذي كنت أعيش أنا فيه - كل ذلك العالم - يترنح[2] بسبب من فقدان أي اتفاق على ما هو خير وما هو شر روحيا وبالتالي اجتماعيا واقتصاديا أيضا. إنني لم أكن أؤمن فعلا بأن الإنسان الفرد كان بحاجة إلى الخلاص، ولكنني كنت أؤمن فعلا بأن المجتمع الحديث كان بحاجة إلى الخلاص لقد شعرت، أكثر مـن أي وقـت مضـى، بـأن عصرنـا هـذا كـان بحاجـة إلى أسـاس أيديولوجـي لعقـد اجتماعي جديد: بحاجة إلى إيمان يجعلنا نفهم بطلان الرقي المادي من أجل الرقي نفسه - ومع ذلك يعطي الحياة الدنيا حقها، إيمان يبين لنا كيف نقيم توازنا بين حاجاتنا الروحية والجسدية وبذلك ينقذنـا مـن الهلاك الذي نندفع إليه برعونة وتهور[3]."[4]

في هذه الاعترافات والإشارات التي اقتبسناها من الغربيين أنفسهم كفاية لمن اعتبر.

---

١) محمد أسد، **الطريق إلى الإسلام**، ص ٢٣٦.

٢) يترنح: يتمايل سكرا أو غيره.

٣) الرعونة: الحمق والتهور الوقوع في الأمر بقلة مبالاة.

٤) المصدر السابق، ص ٢٤٦. ما ذا ترى يكتب محمد أسد عـن الغرب لو كـان حيا إلى هـذا الحين ورأى مـدى الافتضـاح الغربي في حقـوق الإنسـان تجاه حـروب بوسـن وكوسـوفا والشيشان؟ وما ذا تراه يقول لو رأى تلك الأرقام الهائلة عن كـثرة الانتحارات وانتشار المخدرات وفشو الأمراض النفسية في الغرب ؟

٢- ازدياد القلق النفسي و فشوّ الأمراض النفسية

لعل من أبرز مظاهر الخواء الروحي الذي تبثه الحضارة المعاصرة أينما حلت هو ازدياد التوتر العصبي والقلق الروحي وكثرة المشاكل والأمراض النفسية لدى من يرتضعون من ألبانها وينتعشون بأنفاسها. وبطبيعة الحال هذا هو الذي يؤدي غالبا إلى استعمال المسكرات والمخدرات وذيوعها بين المجتمع وينتهي الأمر بالانتحار فكما أن تحمل الإنسان للجوع والعطش إنما هو إلى أجل مسمى إلى حيث ينفد الجسد ما لديها من الطاقة المخفية فكذلك تحمل الإنسان للخواء الروحي أيضا إلى زمن محدود ثم ينتهي الأمر إما باستعمال تلك الأمور التي تنسيه ذلك الخواء ولو فترة قصيرة كالكحول والمخدرات وأما إلى الخلل والشذوذ في الحركات والسلوك (أي المرض النفسي الذي يبرز آثارها في اختلال الحركات والسلوكيات) وإما إلى السعي في القضاء على حياته كي يتخلص مما يعانيه من الشقاء و الألم الروحي.

وكل هذه السلبيات مما ترى بكثرة في تلك الأماكن التي ثبتت فيها عقلية الحضارة الغربية أو جزء من ثقافتها أفليس من الغريب المؤسف جدا أنه انتحر في قرية صغيرة من قرى ماردين في جنوب شرق آناضول بتركيا (كانت مبتلاة إلى حد كبير بالتلفاز) ضمن عام واحد سبعة أشخاص مع أننا نعلم أن الانتحار ما كان موجودا في تاريخها قبل.

هذه الأرقام التالية من أصدق الشهداء على ما تتسم به الحضارة المعاصرة من خواء روحي هائل يسبب الكثير من الأمراض النفسية

والاضطرابات الروحية : في الاتحاد الأمريكي يتداوى أربعة أشخاص من كل ألف في عيادات الأمراض النفسية. وفي منطقة نويورك يرتفع إلى خمس من كل ألف. وكذلك يشغل مرضى الأمراض النفسية في جميع مستشفيات الاتحاد الأمريكي أكثر من نصف المرضى المنومين. وحسب تقرير قدمه مؤسسة الصحة الأمريكية عام ١٩٦٨ أجري في الاتحاد الأمريكي أسئلة استطلاع رأي عام على ١١١ مليون شخص مما بين ١٩ و ٧٩ عاما من العمر فرؤي أن واحدا من كل خمسة يعانى بعض الأزمات النفسية.

وبعد عشرة أعوام مضت على هذا التقرير أسس في أيلول عام ١٩٧٧ لجنة الصحة النفسية بأمر من الرئيس الأمريكي فرؤي أن هذه المشاكل النفسية في المجتمع الأمريكي أخطر بكثير مما كان يخمن لأنه شوهد أن ربع السكان قلق جدا من تلك المشاكل النفسية.

وثبت في دراسة ميدانية أجراها معهد صحة النفس الوطنية في أمريكا عام ١٩٧٧ أن أكثر من ٣١،٩ مليون شخص أمريكي يتداوى من المشاكل الروحية والقلق والاضطرابات النفسية وأن ٨ ملايين طفل من ٥٤ مليون محتاج إلى المعونة بسبب الاختلالات النفسية.[1]

---

١) نقلنا كل هذه الأرقام من كتاب عاليا عزت بيغوفتش، **الإسلام بين الشرق والغرب**، ترجمة صالح شعبان التركية، نشر دار النهر، إستانبول بلا تاريخ، ص ٩٨ ومن هامش مكتوب في نفس الصفحة.

٣ - انتشار المخدرات والمسكرات

ومن أهم تلك الظواهر التي نجمت عن الفراغ الروحي لدى الكثير من أبناء الحضارة المعاصرة كثرة انتشار المخدرات والمسكرات. فكما قررنا آنفا أن الإنسان إذا ما كلف أن يحمل روحه ما ينوء بحمله آل أمره إلى أن يقع في تدهور وهبوط نفسي وقلق دائم يحب أن ينقذ نفسه من آلامها مهما كان الثمن غاليا فلذا لا يرى المناص إلا في الالتجاء إلى ما يخدر به وعيه ويغيب به شعوره وعقله، فسبب تعاطي المخدرات والمسكرات إما النوء بعبء الحياة بحيث لا يستطيع حملها وليس لديه من أي ملجأ معنوي آخر يلتجئ به فيطمئن به باله أو يجد به العزاء والسلوان وإما الخواء الروحي الذي يسبب القلق والضجر والسآمة من الحياة وأحداثها - هذان الأمران هما السببان الرئيسان لتوجه غالب الناس إلى تناول المسكرات والمخدرات- وإما التفكه والتلهي وهو في ديارنا إنما يكون سببا عند الطبقات الأرستقراطية والأثرياء الذين ضعف الوازع الإسلامي فيهم أو ما بقي أصلا.

إذا لوحظ هذه النقاط علم بسهولة سبب فشو المخدرات في المجتمعات الغربية أو من تتجه اتجاهها من بعض المجتمعات المسلمة وهو - باختصار- فشو الخواء الروحي الناتج من تأسسها على الوضعية والمادية وثقل أحمال الحياة ومشاكلها المسببة لكثرة القلاقل والسآمة والاضطرابات النفسية والتفكه والتلهي الناشئين عن فراغ الحياة بمعنى

الكلمة عندهم. ومهما كان الأمر نجد أن عدد المخدرين من أبناء الحضارة المعاصرة بلغ إلى أرقام هائلة :

ففي أمريكا يوجد لعشرة ملايين إنسان على الأقل مشاكل كحولية وحسب التقرير الذي سجله شرطة نيف يورك (Newyork) إن عدد الذين يستعملون الهيروين وسائر المخدرات القوية التأثير لعام ١٩٦٣ أكثر من ثلاث وعشرين ألف شاب هؤلاء سجلوا أنفسهم على الطريقة الرسمية.[١]

إن دراسة إخصائي النفس في الاتحاد السوفياتي ن. **هوداكوف** **(N.Hodakow)** تكشف عن انتشار رهيب للكحول في البلاد المتحضرة بعد الحرب العالمية الثانية فقد ازداد استهلاك الكحول في العالم ضعفين من عام ١٩٤٠ إلى ١٩٦٠ وازداد المعدل ٢,٥ إلى عام ١٩٦٥ ، وبنسبة ٤,٣ إلى عام ١٩٧٠ ، و بنسبة ٥,٥ إلى عام ١٩٧٣. وينكشف هنا شيء آخر وهو انتشار الكحول بين الشباب و النساء أيضا : فحسب الأرقام التي أعطتها جمعية محبي الخير للإنجليز (The Offered Help) يوجد في بريطانيا أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ شخص كحولي. وكل واحد من اثنين من هؤلاء يذهب إلى مستشفى الأمراض النفسية ، وواحد من كل ثلاثة منهم مرشح للانتحار. وفي استهلاك الكحول فرنسا تحوز الدرجة الأولى ثم تتلوها إيطاليا ثم الاتحاد السوفياتي* وأما الموت بالأحداث التي

---

١) عاليا، المصدر السابق، ص ٩٦.

*) حينما قبسنا هذه السطور كان الاتحاد السوفياتي أثرا بعد عين ولكن حفاظا على الموجود في الأصل كتبنا نفس الشيء.

نشئت من الكحول فبرلين الغربي في ألمانيا تحوز الدرجة الأولي لأنه يقع لكل ١٠٠,٠٠٠ شخص كحولي ٤٤,٤ حادثة موت ثم بعدها فرنسا بنسبة ٣٥ ثم النمسا بنسبة ٣٠. (هذه المعلومات راجعة لعام ١٩٧١)[١] نكتفي بالمذكور من الأرقام القديمة التي ازدادت اليوم أضعافا مضاعفة ففيها عبرة لمن اعتبر.

ومن كثرة انتشار المخدرات تكونت تلك المؤسسة أو الجمعية الرهيبة في العالم المافيا فبلغت إلى درجة يحسب لها حسابها كثير من الدول القوية وهو بلاء آخر سلط على العالم المعاصر بسبب عصيانه وطغيانه.

٤- كثرة الجرائم والانتحارات

هذا الخواء الروحي الذي يعاني منه إنسان الغرب الكثير بينما يسبب من جانب تلك الشقاوة الروحية والتعاسة العميقة التي أثرت في أعماق إنسانيتهم تراه من جانب آخر سبب كثيرا من الأمراض والمشاكل الاجتماعية أيضا غير انتشار المسكرات والمخدرات كما ذكرنا من فشوّ الجرائم البشعة وكثرة انتشار الانتحارات والاغتيالات فيما بين إنسان الغرب وهذه الأرقام والإحصاآت التالية رغما من أنها قديمة أخلقها الزمن (لأن الغرب تقدمت في هذه الأمور وازدادت أرقامها أكثر وأكثر) فإنها تعطينا فكرة كافية عن الحضارة الغربية وما أتت به للإنسانية من الدمار والبوار:

---

١) بيغوفتش، **الإسلام بين الشرق والغرب**، ص. ٩٥.

١ - يرتكب من أبشع الجرائم كل سنة خمس ملايين جريمة في الاتحاد الأمريكي الذي هو من أغنى بلاد العالم كما أن نسبة ارتكاب الجرائم العظيمة ازدادت لفترة ١٩٧٠-١٩٦٠ مائة وثمانية وسبعون بالمائة، وفي تلك البلاد لفترة ١٩٦٤ يعتدي على النساء في كل خمس وعشرين دقيقة مرة، وفي كل خمس دقائق يرتكب غصب، وفي كل ثانية يسرق سيارة، .كل هذه الأرقام حسب التقرير السنوي الذي ضبطه المخابرات الأمريكية.[١]

٢- إن ما يجدر أن يلفت نظر العالم أجمع ويسترعى انتباههم قاطبة هو الازدياد المخوف المفزع في القتل والجرائم في تلك الدول المتمدنة التي رشحت نفسها لسيادة العالم وقيادته فمثلا كان يقع في عام ١٩٥١ لكل ٣,١ نسمة قتل بينما ترى أن تلك النسبة ارتفعت لعام ١٩٦٠ إلى خمسة قتلات وفي عام ١٩٦٧ إلى تسعة قتلات يعنى ازدادت نسبة القتل في الاتحاد الأمريكي ضمن ستة عشر عاما ثلاثة أضعاف.[٢] وفي ألمانيا الفيدرالية بينما كان عدد الجرائم لعام ١٩٦٦ مليونين ارتفع العدد لعام ١٩٧٠ أي ضمن أربع سنوات فقط إلى ٢٤١٣٠٠٠ جريمة

---

١) المصدر السابق، ص. ٩٣.

١) راجع المصدر السابق وانظر حول ما تعانيه الغرب والاتحاد الأمريكى من المخدرات

Roger Garaudy **Coküün ?ncüsü,** Türkçesi Cemal n, Nehir yay. Ýst. 1997, s. 35-36.

٢) المصدر السابق ص. ٩٤.

وفي فرنسا ازداد وقائع السرقة ضمن عشرة أعوام من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٦ بنسبة ١٧٧ بالمائة.[١]

وحينما كتبت هذه الأرقام كنت أستاذا زائرا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٢٠/٢٠٠٠ بالرياض فبحثت عن شيء من إحصائية قضايا القتل فقط بمنطقة الرياض التي ينوف عدد سكانها على خمسة ملايين كي أتيح للقارئ مقارنة ما بين هذه الحياة الرهيبة في الغرب وبين ما يعيشه المسلمون فوجدتها كما يلي حسبما ضبطه الكتاب الإحصائي الثاني والعشرون لوزارة العدل عام ١٤١٨ : مجموع قضايا القتل في جميع محاكم منطقة الرياض وهي اثنان وعشرون محكمة ست وسبعون قضية فقط لعام ١٤١٨/١٩٩٨. وقضايا السرقة المنظورة أمام محكمة الرياض الكبرى لنفس العام ثمان وخمسون قضية.

٣- دولة السويد -التي تبوأت الدرجة الأولى في كثير من مجالات تنظيم الحياة الاجتماعية وهي أكثرها تمسكا بمبادئ الديمقراطية كما أنها من أغنى دول العالم وأكثرها استثمارا كاملا للعمل ومضى عليها ١٥٠ عاما وهي تعيش في أمن وسلام - ضربت الرقم القياسي في الانتحارات واستعمال المخدرات وكثرة ذوى الأمراض الروحية إلى أن ألجئ برلمان السويد إلى مذاكرة قضية ازدياد عدد ذوي الأمراض الروحية في البرلمان. وعدد الانتحار في عام ١٩٦٧ كان ١٧٠٢ انتحارا.[٢]

---

١) المصدر السابق.

٢) المصدر السابق، ص ٩٨.

٤- كما يأخذ العجب منا كل مأخذ حينما نقرأ هذا التقرير الذي نشره منظمة الصحة العالمية عام ١٩٦٨ حيث بين التقرير حول حادثة الانتحار أن ألمانيا الفدرالية والنمسا وكندا ودانيماركا وفينلانديا ومجاريا والسويد وسويسرا تحوز الدرجة الأولى في الانتحار، ففي هذه البلاد الانتحار هو السبب الثالث للموت بعد مرض القلب والسرطان.[١]

٥- ظاهرة الانتحار في الغرب لا ترى بين العاديين من أبناء الشعب فقط بل يرى انتشاره بين كثير من مشاهيرهم أيضا فهذا يقدم مؤشرا ذا أهمية خاصة يدل على حال اليأس والإحباط والقلق والخواء الروحي الذي يتردى فيه كثير من الناس الغربيين وحتى قسم كبير من مشاهيرهم أيضا :

في سنة ١٩٤٢ انتحر الروائي الكبير **ستيفان زفايج** في البرازيل في إحدى ليالي الكرنفال إذ تناول السم مع زوجته وهذه الجملة التي كتبها في إحدى قصصه الأخيرة يدل على مدى الهبوط الذي وقع فيه وبه تردى: "إن العالم الذي نعيش فيه لم يستطع أن يقدم لنا الشيء الكثير في الوقت نفسه الذي لن نستطيع فيه المشاركة في تغيير أي شيء، إننا لا نعدو أن نكون مجرد أشباح وذكريات"،

وفي سنة ١٩٤٩ انتحر الأديب الألماني **كلاوس مان** في مدينة كان الفرنسية،

---

١) المصدر السابق، ص. ٩٨.

وفي سنة ١٩٥٠ انتحر الأديب الإيطالي **سينزر بافيزه** في مدينة تورنتو بعد أن وصل إلى قمة الأدب الإيطالي إثر نشر روايته " مهنة الحياة" التي تفوح منها رائحة الموت والانتحار،

وفي سنة ١٩٦١ اهتز العالم لانتحار الأديب الأمريكي الشهير **أرنست همنجواي** الذي اختار أن يضع نهاية حياته بيده بعد أن بلغ من الشهرة الأدبية داخل أمريكا وخارجها ما يجعله في مصاف الأدباء العالميين،

انتحر عام ١٩٧١ الكاتب المشهور **ياسوناراي قاواباتا** الذي فاز بجائزة نوبل للأدب العالمية لعام ١٩٦٨،[١]

وفي يوم افتتاح معرض الكتاب الدولي في مدينة فرانكفورت سنة ١٩٧٨ انتحر الكاتب الفرنسي **جان إمري** الذي التزم طوال حياته بأدب الموت مقتفيا أثر ملهمه الفكري **هاينريش فونكلايست** الذي انتحر سنة ١٨١١،

وفي سنة ١٩٨٠ بالغ الشاعر الألماني الدكتور **هانز باير** في الاحتفال بانتحاره حيث عمد في ذكرى ميلاده الحادية والستين إلى تناول كمية كبيرة من الحبوب المنومة بعد أن ارتدى حلته الجديدة، ونثر الزهور على سريره الذي استقبل عليه الموت،

---

١) المصدر السابق، ص ١٠٣.

وفي سنة ١٩٨٣ دخل خادم الكاتب البريطاني المعروف (آرثر كوستلر) غرفة جلوس سيده فوجده جالسا على أريكته التي كان يطالع فيها وبجانبه زوجته، وكان الاثنان ميتين بعد أن عمدا إلى الانتحار.[١]

والأعجب الأغرب أنه ترى الأدلة العديدة التي تحوي وصفات عديدة للانتحار بدأت تنتشر في أوربا وأمريكا بمختلف اللغات مع انتشار جمعيات تشجيع الانتحار التي زاد عددها على ثماني عشر جمعية.[٢]

حقق دولة السويد ازديادا هائلا في مجالين فيه عبرة لمن اعتبر:

أ- حقق رابع معدل في الإنتاج الوطني الخام في العالم،

ب- حقق أول نسبة في الانتحار لدى الشباب ما بين الخامسة عشر والخامسة عشرين سنة في عام ١٩٩٢.[٣]

ويلاحظ المراقبون لأحوال المجتمعات أن السويد وفرنسا وألمانيا تأتي في مقدمة بلاد العالم من حيث عدد المنتحرين ففي فرنسا وحدها انتحر عام ١٩٩٢ أحد عشر ألفا.[٤] كما أن الانتحار هو السبب الرئيس الثالث للموت بعد مرض القلب والسرطان للذين أعمارهم بين ١٥ و

---

١) حيدر عبد الكريم الغدير، **المسلمون والبديل الحضاري سلسلة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية ١٤١٢-١٩٩٢، ص ٢٣-٢٤ مع تصرف قليل.**

٢) نفس المصدر

٣) أحمد القديدي، **الإسلام وصراع الحضارات**، سلسلة كتاب الأمة، الطبعة الأولى، قطر ١٤١٥، ص ١٠٧.

٤) المصدر السابق، ص ٨٩.

٤٥ عاما في كل من ألمانيا والنمسا وكندا ودانيماركا وفينلانديا وبلاد المجر وسويسرا والسويد.[١]

ولا يغيبن عن بالنا أن المجتمعات الشرقية من أمثال اليابان والصين وغيرها مهما ازدادت احتكاكها و مداناتها بالغرب في أخذ قيمها ومعالمها الحضارية ازداد فيها أمثال تلك المشاكل التي يعاني الغرب منها من كثرة الجرائم وذيوع الانتحارات ولكن هنالك بعض الأمور يلزم أن لا يغيب عن بالنا:

فأولا إن دخل الفرد في بعض من تلك البلاد (كالصين) ومستوى رفاهية الفرد فيها لم يبلغ كما لدى المجتمعات الغربية مستوى من الشبع يحس المرء فيها بالجوع والفراغ الروحي فمادام المرء مشغولا فكره وعقله بحاجات البدن من مأكل وملبس ومشرب وسكنى فقلما يجد الزمن الكافي للتفكير في الحاجات الروحية أو قلما يحس بالفراغ الروحي.

وثانيا إن تخلي بعض تلك البلاد من القيم الروحية والمعنوية لم يبلغ بعد مبلغ بلاد الغرب فأمثال الكونفوشستية و البوذية والبرهمانية والطاوية والزرادشتية والهندوكية والشنتورية من ديانات الشرق الأقصى وإن كانت باطلة لكن المرء يجد فيها بعض السلوان فيسلي بها بعض الشيء روحه ويملأ بعضا من فراغه بها فتعرقله تلك التسليات وإن كانت باطلة عن الإقدام على الانتحار وأمثاله،

---

١) بغوفيش، الإسلام بين الشرق والغرب، ص ٩٨.

وثالثا إن بعض تلك البلاد لم يصل بعد مستوى بلاد الغرب في تلك الدرجة المرموقة في الرفاهية والتطورات التكنولوجية وبصفة عامة في المستوى الحضاري فلا تزال تبعا للغرب في كثير من أمورهم فالأنظار متجهة إلى الغرب أكثر وارتباط الناس بها أزيد، كما أنها أكثر انفتاحا من غيرها أيضا، فالوصول إلى بعض المعلومات عن المجتمعات الغربية أيسر فلذا علمنا بها وبما يجري في ساحتها أكثر وأوسع.

ورابعا إن الغرب تتبنى هذه الحضارة وتعتز بها وتضيف إلى نفسها جميع محاسنها فإضافة مساوئها أيضا إليها أعدل وأوفق.

مع أن هناك تثبيتا رائعا لرئيس البوسنة السيد **عاليا عزت بغوفيش**:

"فمذ عام ١٨٩٥ انتحر في اليابان من بين كتاب القصص الرومانسية ثلاثة عشر كاتبا وظهور هذا الحدث المخوف في ثقافة اليابان يصادف الوقت الذي أخذت حضارة الغرب وعقليتها المادية تتسرب فيه إلى تقاليد اليابان المحافظة"[1]

ومما لا تكاد تصدقه تجاه ذلك الحدث المنتشر انتشارا هائلا في الأوساط الغربية ومن على شاكلتها أني بحثت عن إحصائيات الانتحار في منطقة الرياض فأفادني أحد من قضاة محكمة الرياض الكبرى أن الانتحار في المملكة شيء نادر جدا وقال إن المجتمع السعودي ما تعارف مع الانتحار إلى عام ١٤١٦/١٩٩٧ الهجري وضمن هذه السنوات الأربع التي تعارف المجتمع مع الانتحار بواسطة التلفاز أو الجاليات الغير

---

١) عزت بغوفيتش، المصدر السابق، ص ١٠٣.

المسلمة التي يشتغلن فيها لم يقع في طول المملكة وعرضها سوى ثلاث أو أربع انتحارات فقط واحد منها كان غير مسلم وواحد كان مريضا نفسيا. ومما يصدق ما قاله القاضي الفاضل ما عشته أنا بنفسي طول عمري الذي ينوف الآن على اثنين وأربعين عاما وهو أني لم أصادف إلى اليوم ولا انتحارا واحدا في الأوساط التي عشت وأعيش فيها المتمسكة بالإسلام - قليلا أو كثيرا- لا في القرى ولا في المدن الذي مر فيها أيام عمري في مناطق الشرق وشرق الجنوب للأناضول بتركيا.فالانتحار ما كان معروفا في أوساطي المسلمة التي أعيش فيها أيضا. وهذا من فضل الله بالإسلام علينا فلنحمد الله كثيرا.

والسبب الرئيس في ذلك هو ما يتمتع به المسلمون من عقيدة التوحيد والآخرة أولا ، وما أمر به الإسلام من الصبر على الشدائد وتحمل المشقات والنهي عن الجزع منهما ثانيا ، وما وعد به من الأجر الجزيل على صبر المصيبات وجميع المضايقات ثالثا ، وحرمة الانتحار في الإسلام باتا وعده من الكبائر رابعا ، يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حديثين رواهما مسلم : **"من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا. ومن شرب سما فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ومن تردى من جبل وقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا."، "من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذبا فهو كما قال ومن قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيمة..."**[1]

---

١) مسلم، كتاب الإيمان/٤٧.

فهل ترى أحدا يؤمن بما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يحاول أن ينتحر وهو صحيح سليم؟

ب- القسوة المميتة

إن الرحمة والشفقة قد ضاعت لحد مرعب فيما بين بني الإنسان الذين تحدد معالم الحضارة الغربية حياتهم لأن أهم الألوان السائدة على حياة أبناء الحضارة المعاصرة هو الرأسمالية وبدورها الغير اليسير في تشكيل عقليات عامة الناس كان أكثر ما يتحلى غالب أفراد شعوب الغرب به (!) هو البراجمتية السيئة أي النفعية وحب الذات لا غير، ومن أدل الدلائل على مدى تلك القسوة التي يتمتع بها ذلك الروح الغربي:

أولا ما أوجده الغرب واخترعه من أسلحة الإبادة الجماعية من القنابل، إلى المدفعيات الثقيلة، إلى الصواريخ، إلى الأسلحة الكيميائية، إلى الأسلحة البيولوجية، إلى القنابل الهيدروجنية والذرية أو بصفة عامة الأسلحة النووية (التي كل منها أشد وأخبث من الآخر). فلو كان لديها أدنى مرحمة بالإنسانية أو بذوات الحياة لما تسابقت مع غيرها في ذلك السبيل، فمثلا كيف يتصور أن يصنع أو يحدث إنسان أو جهة أو حكومة يوجد لديها أي شيء من المرحمة والرأفة أمثال تلك الأسلحة البيولوجية التي تنشر الجراثيم الفتاكة التي لا تعرف لا صبيا

بريئا ولا شيخا نحيفا ولا أي أحد آخر؟ مهما كان بريئا نعم إنه حضارة الغرب تصنع هذا وأدهى وأمرّ!

ثانيا تلك الأموات العظيمة والمجازر البشعة التي تجري على ساحتها وبأيدي البعض من خلص أبنائها وعلى مرأى ومسمع من البعض الآخر من أبنائها فمثلا قتل في الحرب العالمية الأولى ثلاثون مليون، وفي الحرب العالمية الثانية سبعون مليون نسمة، كما أن فاتورة الاحتلال البلشفي ودوام الشيوعية -التي هي من أشأم أولاد الحضارة الغربية- في الاتحاد السوفياتي في الضحايا البشرية خمس وستون مليونا، كل هذا في الربعين المتوسطين من هذا العصر وأما في الربع الأخير أو قل في العقد الأخير من هذا القرن فما جرى على ساحة بلاد الأفغان وما جرى في قلب أوربا في البوسنة والهرسك وفي كوسوفا وما يجري حاليا في الشيشان فمن أبشع جرائم البشرية المتقززة[1] التي قلما رآها الإنسانية إلا في مثل الحربين العالميين مما يديرها عقلية الحضارة الغربية. قتل في حرب بوسنة بأيدي الجلادين الصربيين بوسنية أكثر من ثمانية عشر ألف صبي كما انتهك عرض ثمانية وثلاثين ألف امرأة شيشانية وكما قتل لحد الآن- حسبما نشر على طريق الانترت وأذيع عبر وكالات الأنباء العالمية- من شعب الشيشان القليلة بأيدي الروس التي تحاول إبادة ذلك الشعب بكامله على مرأى ومسمع من جميع العالم نحو من عشرين ألف نسمة وانتهك أعراض عشرين ألف امرأة

---

١) المتقززة: التي يعفاه الطبع ويأباه.

شيشانية، فلذا يسمي هذا العصر أحد من خلص أبنائها وهو مستشار الرئيس الأمريكي السابق **جيمي كارتر** في البيت الأبيض **برزنسكي: عصر الموت الأكبر.**

هذا عدا تلك المجازر الجماعية التي جرت في كل من بوسنا وكوسوفا والشيشان والجزائر والبلاد الأفريقية الأخرى وعدا ما كان يجري في مخيمات الأسرى البوسنيين والكوسوفيين والشيشانيين من تلك التعذيبات التي لا يستطيع إنسان بقي في قلبه صبابة من الرحمة أن يتفرج عليها دعك من فعلها. لكنه هو الغرب الذي أقفر وأجدب أرضها من الرحمة والشفقة منذ أمد بعيد!

ملكنا فكان العدل منا سجية ❖ فلما ملكتم سال بالدم أبطح

ولا عجب هذا التفاوت بيننا ❖ فكل إناء بالذي فيه ينضح

فيا ترى! بالله عليك! أليس كل هؤلاء الأمور من أدل الدلائل على ما تطبعت به الحضارة الغربية من القسوة والوحشة والعنف والشدة من جراء خلوها من جميع معاني الرحمة والرأفة؟

ج- الحرص والجشع البالغ

إن الحرص الزائد على تجميع ثروات الأموال ثم الوصول إلى قدر أزيد من ملذات الحياة والتمتع بزخارفها هو المحدد لاتجاه الغالبية العظمى من الناس الذين ارتضعوا من ثدي تلك الحضارة - سواء كانوا غربيين أم لا- فصار الكثير من الناس الذين نفخ فيهم روح الحضارة

الغربية هنا وهناك لا يعرف في سبيل الاستحصال على المزيد من الأموال واللذائذ لا ضابطا دينيا ولا قيما أخلاقية ولا مانعا فضائليا ويضحي في ذلك السبيل بكل نفس ونفيس لأن أبناء تلك الحضارة الإنسانية(!) يرون أن جميع فلسفات الحياة وقيمها مبنية على حب "أنا" وإيثاره على كل شيء، فلذا ترى المعاملات الربوية ومؤسساتها هي التي تشكل صلب الحياة الاقتصادية حتى صاروا بحيث أن الكثير منهم يعتقد أنه لا يمكن أن ينجح أي نظام اقتصادي بدون الربا والبنوك وانطلاقا من ذلك الرأي الخاطئ الآثم انتشر الربا في بعض من دول العالم الثالث انتشارا غير متزن ولا طبيعي بحيث صار يهدد نظام وأمن البلد بأجمعه بما تأتي الربا به من تضخم بالغ وعلى سبيل المثال إن مدفوع تركيا السنوي للربا يبلغ عشرة مليار دولار أمريكي ومعنى هذا أن تركيا يعيش كل عام نوعا من تلك الزلزلة الكبرى التي عاشها عام ١٩٩٩ لأن جميع خسائر تلك الزلزلة قدر باثني عشر مليار دولار أمريكي.

كما ترى كأثر لهذا الحرص والجشع البالغ والخواء الروحي الذي مر بنا انتشار القمار أيضا في المجتمعات الغربية بصورة رهيبة: فأكبر محلات المقامرة إنما هي في بلاد الغرب من مثل مونته كارلو (Monte Carlo) ودوويلله(Doville) وماكاو (Macao) ولاس ويجاس (Las Vegas) وبني في آطلانطك ستي (Atlantic City) محل للقمار يتسع ستة آلاف مقامر كما أن الفرنسيين صرفوا عام ١٩٦٥ على القمار ١١٥مليار فرنك

فرنسي وصرف الأمريكيون - حسب المعلومات المأخوذة عن حكومة أمريكا - عام ١٩٧٧ على القمار١٥ مليار دولار أمريكي.[١]

ومثلا قد حدثت جرائم سطو وقتل وعنف وتخريب بدرجة تفوق أضعافا مضاعفة ما يحصل في الأوقات العادية حينما انقطع الكهرباء في نيويورك عام ١٩٧٧ لمدة طويلة وعم الظلام وانقطع الشرطة من مهمته وغاب الأمان.[٢] فهذا الحدث له دلالات كثيرة ودروس جمة فيما يحتوي عليه الحضارة الغربية من القيم والأخلاق وفيما يتمتع به الرجل الغربي ومن كان على شاكلته من الحرص والجشع البالغ بحيث لا يعرف أية فضيلة ولا أية كرامة في سبيل إشباع نهمه، بينما لا ننسى أن في كثير من البلاد الإسلامية التي تعاني شعوبها الفقر المدقع والجوع القاتل ينقطع الكهرباء بكثرة ولفترات طويلة ولا يقع مثل تلك الأمور المخزية فيها. كما لا ننسى إن التدابير الأمنية التي تتخذ في البلاد الإسلامية إذا قورنت مع الغرب ترى أنها ضعيفة للغاية ولكن رغما من ذلك لا يقع فيها أمثال تلك الحوادث. حتى إن من الأمور العادية -وشاهدنا ذلك بأم أعيننا- في مدينة الرياض أن الناس يذهبون إلى المساجد للصلاة ويتركون دكاكينهم التي تحتوي على ملايين الريالات مفتوحة أبوابها وكثير من أموالهم الغالية على قارعة الطريق ولا يتعرض لها أحد - اللهم إلا أحد ممن تشبع بعقلية الحضارة الغربية-

---

١) نفس المصدر، ص ٩٦.

٢) حيدر الغدير، المسلمون والبديل الحضاري، ص ٢٥.

مع أن في مدينة الرياض يوجد كثير من الفقراء الذين يحتاجون إلى ريال واحد.

كما ترى بكثرة أن الناس في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم يتركون أمتعتهم التي لها قيمة تامة عند دور المياه ويذهبون إلى الحرم النبوي ويصلون ويبقون هناك ساعات طويلة ولا يتعرض لأمتعتهم بالأخذ والاعتداء أحد من هؤلاء الجموع الغفيرة من ملايين الناس الذين أخذوا جزأ - ولو قليلا- من أدب الرسول صلى الله عليه وسلم - ونسبة الفقراء المعوزين فيهم تشكل كما كبيرا- كما جربت أنا ذلك في أمتعتي أيضا عام ١٤٢٠/١٩٩٩ فكنت أنا وأخ آخر معي وضعنا عند دور المياه الجنوبية أمتعة لنا كانت تساوي قريبا من مأتي ريال سعودية أو ربما أكثر وذهبنا للصلاة ولم نرجع إلا بعد فترة طويلة فوجدنا أمتعة كما وضعناها فلم يتعرض لها أحد، ورأيت أن إلقاء الأمتعة هناك بلا حارس ولا حافظ - اللهم إلا حارس الإيمان والعقيدة الحقة- شيء عادي وكذا رأينا نفس الشيء في الحرم المكي حيث تركت عند أحد من أبواب الحرم حقيبة لي كان فيها ما تساوي أكثر من ألف وخمسمائة ريال (أربعمائة دولار) ولم أرجع إلا بعد أكثر من ثلاث ساعات. فلم يتعرض لها أحد أيضا. فلله الحمد والمنة.

ومن الجانب الآخر ترى في الأوساط المتمسكة بالإسلام - وحتى غيرها ممن انحدروا من أصل إسلامي - أن غالب التعامل اليومي بالقرض والدين - البالغ بعضا المبالغ الكثيرة- الذي له حجم كبير في

الاقتصاد اليومي والشهري والسنوي يجري اعتمادا على التواثق الموجود في المجتمع فقط بدون كتابة أية وثيقة أو سند أو شيك أو غيرها من وسائل التوثيق عند الجهات الرسمية لاستيقانهم أن المسلم لا يأكل مال الغير ظلما وعدوانا طالما وجد عنده خشية الله سبحانه. علما منا أن حكمة الإسلام في مثل تلك المعاملات الكتابة إزاحة للنزاع من المجتمع:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ...﴾[1].

نعم وكأني بالقارئ حينما يقرأ هذه السطور يرفع عقيرته من حنجرته بسخط بالغ وزمجرة شديدة قائلا فإذا كان حال المسلمين على هذا المستوى من الثقة والأمن فما بالهم لا يزالون أسوء الناس حالا وما بالهم يكونون في أخريات القوم حينما يتابعون مشوارهم الحضاري في العالم المعاصر نقول نعم إن ما يقال من سوء حال المسلمين شيء صحيح ولكن ليس السبب هو الإسلام بل السبب هو تركهم للإسلام. فتراهم أنهم في أية ناحية من نواحي حياتهم تمسكوا بالإسلام الصحيح بلا إفراط ولا تفريط فاقوا في تلك الناحية غيرهم أضعافا مضاعفة كما يفيد تلك الحقيقة الرئيس الحكيم عاليا بغوتفش بقوله: **إن تاريخ كل شعب إسلامي هو في آن واحد جدول زمني للمنجزات والانتصارات الرائعة بقدر ما هو سجل للضلالات المؤسفة والهزائم المخجلة وإن جميع نجاحاتنا وهزائمنا السياسية والمعنوية هي في الحقيقة مجرد تعبير صادق عن مقدار تمسكنا**

---

١) البقرة، ٢/٢٨٢.

بالإسلام وتطبيقه في حياتنا اليومية. إن تناقص تأثير الإسلام في الحياة العملية للشعب كان يعقبه دائما انحطاط الناس والمؤسسات الاجتماعية والسياسية...فرقي المسلمين دائما مرتبط وتمسكهم بالإسلام، وتراجع وانحطاط المسلمين دائما مرتبط بإهمالهم للإسلام كذلك.[1]

(ونذكر مثالا بسيطا يمكن أن تجد فيه مقارنة طريفة بين حال المسلمين إذا عملوا بالإسلام وبينهم إذا لم يعملوا بالإسلام وكذا بينهم وبين غيرهم: فبينما أن نسبة الأمية في هذه الدول الآتية في القرن العشرين عام ١٩٠٦ كانت كما يلي: في بلغاريا وفي صربيا ٧٠ بالمائة، وفي إيطاليا ٤٨ بالمائة، وفي إسبانيا ٦٣ بالمائة، وفي بلاد المجر ٤٣ بالمائة، وفي النمسا ٣٩ بالمائة لم يكن بالأندلس في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد -يعني قبل عشرة قرون- أميون كما يقول ج. و. درابر[2] ومن جانب آخر نجد مثلا حسب التقرير الذي قدمه UNESCO Statistics of Educational Attainment and Illiteracy عن إحصائيات ما بين ١٩٤٥-١٩٧٤ أن تركيا الكمالية (بعد عشرة قرون من الأندلس) لا تزال نسبة الأمية فيها سبعين بالمائة[3] والأمَرّ من ذلك ما نشرته **بنك الدنيا** عن تركيا

---

١) عاليا عزت بغوفيتش، **البيان الإسلامي**، ترجمة أبو زيد المقرئ الإدريسي، منشورات الراية، الطبعة الأولى، الرباط ١٩٩٤، ص ١٧.

٢) نفس المصدر، ص ١٨.

٣) عبد المجيد العبد، **دور الشباب في بناء الأمة والحضارة وكيف نعنى بـه**، بحث نشر في أبحاث اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي باسم الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ج ٢ ص ٤٥٤.

الكمالية في تقريرها لعام ٢٠٠٠ حيث تأتي تركيا في الخدمات الصحية في الرتبة الرابعة والستين (أي يفوق عليها في ذلك المجال ثلاث وستون بلد آخر) وفي استهلاك الطاقة الكهربائية تأتي في الرتبة الخامسة والستين وفي الدخل القومي للفرد في الرتبة التاسعة والثمانين وفي التعليم تأتي في الرتبة الخامسة بعد المائة. ولزعم الكثير من العلمانيين أن الإسلام كان السبب الوحيد لتخلفهم الحضاري كان المفروض أن تتقدم إلى الأمام كثيرا في جميع تلك المجالات بعد تخليها بالعلمنة مذ عام ١٩٢٣ عن المظاهر الإسلامية في أدنى الأمور وأتفهها.)

وهناك شيء آخر وهو أن من دواعي الأسف الشديد أنك ترى إلى جنب تلك الإيجابيات في أمن الأموال والدماء لدى المسلمين ترى كثيرا من العادات والأخلاق السيئة السلبية أيضا موجودة في حياة المسلمين بكثرة من غش وكذب وتملق للكبراء والأمراء ونفاق وعدم وفاء للوعود والعهود والتكالب الزائد على المنافع الدنيوية وعدم الاهتمام بحقوق الآخرين والتنافس على المنافع وإيثار النفع الذاتي على أي شيء آخر- حتى مهما كان من الأهمية والقيمة- علما منا أن هذه السلبيات لا يوجد كثير منها لدى غير المسلمين.

ولفشوّ هذه السلبيات لدى المسلمين أسباب كثيرة جديرة بالملاحظة وأرى أن من أهم تلك الأسباب أولاً ضعف الوازع الإسلامي لدى المسلمين عامة وثانيا فشو الثقافات المستوردة الأجنبية في بلاد المسلمين بواسطة أدوات الاتصال الجماعي من التلفاز إلى الجرائد

والمجلات والإنترنت وغيرها. فكثير من أبناء المسلمين حينما أدخلوا تلك الوسائل الثقافية والأدوات التوجيهية فيما بينهم لم يستطيعوا أن يميزوا غثها من سمينها ولا سقيمها من صحيحها فشربوا السم بقصد الشفاء فوقعت عبر العالم الإسلامي كله ما وقعت من الطامات الكبرى لا في الأخلاقيات فقط بل في الاعتقاديات والاجتماعيات وحتى السياسيات أيضا وصدق على تلك الأدوات الخلابة للعقول والقلوب قول القائل:

كم حسنت لذة للمرء قاتلة ❖ من حيث لم يُدر أن السم في الدسم

وثالثا إن تلك السياسات المبتورة[1] المستبدة الغاشمة في عرض بلاد العالم الإسلامي وطوله - سوى جزء قليل منه- التي لا تولي أي احترام واهتمام بشعوبه لها أكبر الأثر - حسب ظني - في تكون تلك الشخصيات الضعيفة، المنسوجة خيوطها الأخلاقية من لفيف من السلبيات الأخلاقية والأضعاف النفسية فإننا راقبنا في بعض البلاد الإسلامية التي زرناها شخصيات الناس فوجدناها ضعيفة للغاية ففي كثير من البلدان الإسلامية قلما ترى الشخصية المتكاملة المتماسكة المتينة تجاه أعاصير الأحداث والمنافع والشهوات وغيرها من السلبيات، فلا ترى ذلك على المستوى الذي تحبه من الانتشار والكثرة والقوة وتفكرنا فيما عسى أن يكون سببا في ذلك فوصلنا آخر الأمر إلى أن من أهم الأسباب في تكوّن الضعف الخلقي ومن ثم ضعف الشخصية لدى المسلمين هي نوعية السياسة القائمة فيها إلى جنب ضعف أخذهم للتربية

---

١) المبتورة: المقطوعة عن البركة، الغاشمة: الظالمة.

الإسلامية فالاستبداد السياسي وظلم رجال الأمن في بعض والجيش في بعض آخر واضطهادهم هو الذي عود الشعوب المسلمة على التخلق في سلوكياتهم بأسوأ أسباب الضعف الشخصي وأحطها وهو الرياء والنفاق والتملق والكذب. كما أن الفقر الذي أكبر سببه نوعية السياسة القائمة في بلاد المسلمين هو الذي يوجههم ويحرضهم أيضا على الاعتداء حينا وعدم الوفاء حينا آخر بحقوق الآخرين وعلى التكالب الزائد على الدنيا والتنافس على منافعها وعدم الإيثار بها وعلى الغش والخيانة اللتين تراهما في كثير من الأوساط المسلمة من أبسط الأمور وأخفها رغما من نهي الإسلام الأكيد عنهما ورفضه البات لكليهما:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]، ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[2]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[3].

غير ناسين أن البعض من هؤلاء المتجهين بالاتجاه العلماني والغربي يرغبون في أن يجعلوا الإسلام المسؤول الوحيد عن ذلك التشتت والضعف الخلقي كما أسلفنا لكن في ذلك مجانبة عن الواقع وهروب عن الحق الصادق فإن الإسلام منع عن كل هذه السيآت منعا

---

١) الأنفال، ٨/٢٧.

٢) النساء، ٤/٥٨.

٣) النساء، ٤/١٠٥.

باتا وحرمها تحريما لا يقبل التأويل والتبديل. وترى النصوص المانعة عن تلك الأمور مبثوثة بكثرة بين صفحات الكتاب والسنة حتى ألف في ذلك مئآت المجلدات من الكتب ولا ترى في المنع منه نظيرا ولا عديلا للإسلام ولم ينجح في الكفاح معها أي نظام آخر نجاح الإسلام ضدها. ولكن في هذه الدنيا المعاصرة حيث إن الأمور التربوية والتعليمية إنما يسوقها ويسوسها الدولة فإذا ما لم تهتم حكومة ما بنوعية تربية فإنها تبقى آثارها الإيجابية بين الناس ضعيفة مهما كان قدرها عاليا وفائدتها جميلة، وهذا هو ما أصيب به الإسلام، حيث لم يحظ باهتمام الدول المعاصرة ولذلك أسباب يطول شرحها.

د- الظلم الذريع والجور الفظيع

إن الظلم الظاهر الذي يدور ويحور على مسرح الأحداث في الغرب باد لكل ذي سمع وبصر وإن حاولوا أن يلبسوه على الغير بما ألبس لباس الحق بالزور وزوق ظاهره بتزاويق الحقوق والحريات والديمقراطية التي لم يبق لون من الألوان إلا وانصبغت به ولم يبق لباس من الملابس إلا وألبسته خصيصا في العالم الإسلامي، وقد سبق أن ذكرنا ما ارتكبته وحوش الصرب من الجرائم البشعة في بلاد البوسنيين والألبانيين من قتل الأبرياء وخصيصا الأطفال وانتهاك الأعراض (حيث قتل ما يقارب عشرين ألف صبي ولوثت أعراض ما يقارب أربعين ألف امرأة وكل هذا على مرأى ومسمع من الغرب المتحضر! مع أنها كانت

قادرة أن تمنع الحرب في الشهر الأول حتى الأسبوع الأول لكنها لم تمنع لأن الدم المراق دم المسلم ولا بأس في إراقة دمه حسب أخلاقيات حضارتهم!!) وأساليب التعذيب للأسرى (وكان جميع الدنيا المتحضرة تتفرج عبر شاشات التلفاز على ما كانت تجريه الصرب في مخيمات الأسرى من أساليب الوحشية والهمجية والبربرية كما أشرنا إلى ذلك سالفا) إن ما ارتكبوه من جميع تلك المجازر والجرائم التي ما غاب صورها بعد عن الذاكرات الإنسانية وإن الذي لا تزال الروس تفعله في الشيشان حتى الآن - حينما كانت هذه السطور تكتب- من قصف الأبرياء واللاجئين من جانب وما ترتكبه من جانب آخر في الأسرى من قطع آذان الناس وشدهم خلف السيارات وسوقها كي تجرهم على الأرض حتى تتقطع أجسادهم إربا إربا من أصدق الأمثلة على مدى الظلم والجور الذي يحيط بأخلاقيات وسلوكيات أبناء الحضارة الغربية. فهل من مدكر ؟

هـ - رفع القسم الكبير من القيم الأخلاقية والفضائل الإنسانية

إن أكبر دلائل الخطر العظيم الذي ينتظر إنسان الحضارة الغربية المعاصرة هو رفع القيم الأخلاقية فيما بين الناس من جراء مزيل تشبع تلك الحضارة بحب المادية العوراء و بما خلفته واستتبعته من الآثار السيئة ! نعم ذاقت - ولا تزال تذوق - إنسانية القرن العشرين بما لحقها من هذه الأمور أمرّ من العذاب الأليم وغصت - ولا تزال تغص - ما هو أشد عليها من علقم الجحيم!

إن من المسلم أن أوربا قد بلغت القمة في الفن والصناعة، ولكنها ارتدت عن المثل الأخلاقية، فلم تعد تعرف شيئا من الخير للإنسانية فيما وراء حدود عالمها الذي لا يمكن فهمه إلا بلغة المادة. وما كان لحضارة أن تقوم إلا على أساس من التعادل بين الكم والكيف، بين الروح والمادة، بين الغاية والسبب، فأينما اختل هذا التعادل في جانب أوفي آخر كانت السقطة رهيبة قاصمة.[1] وكذلك كانت سقطة الإنسانية في الغرب رهيبة فاقرة! يبدي ذلك الوضع الرهيب بعض من الإحصائيات التي وضعناها بين يديك في هذه العجالة فإن جميع تلك النتائج السيئة إنما ظهرت لأن المدنية الغربية لم تستطع حتى الآن - وإلى يوم القيامة - أن تقيم توازنا بين حاجات الإنسان الجسمانية والاجتماعية وبين أشواقه الروحية. لقد تخلت عن آدابها الدينية السابقة دون أن تتمكن من أن تخرج عن نفسها أي نظام أخلاقي آخر مهما كان نظريا.[2]

هذا النداء من الرجل الألماني **هوفمان** يدل على مدى عمق الهوة[3] الأخلاقية التي يتعفر فيها الغرب ويرتبك: "إن علماء الاجتماع مثل **دافيد بلّ** يسجلون أن النجاح الاقتصادي للدول الرأسمالية قد قوض[4]

---

١)مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص ١٦٨-١٦٩.

٢)محمد أسد، **الطريق إلى الإسلام**، ص ٢٣٦.

٣) الهوة: كل فراغ.

٤) قوض: هدم أو نقض من غير هدم.

القيم الخلقية أو نسفها نسفا[1] وبالتالي اجتث قواعد السلوك والمعاملات...هذه الآلية التي تنسف ذاتها بذاتها تلقائيا تشوه الخصال الحميدة، مثل الجد وعدم التبذير والسلوك الحسن المنضبط و الصبر والإخاء والمروءة والشجاعة. ففي مجتمعات الرفاهية المسرفة والوفرة الفائضة عن الحاجة، نرى تلك الصفات الحميدة قد مسخت وشوهت أضعافا مضاعفة، أو نرى قيما جديدة وأنماط سلوك مستحدثة تحل محلها لتتلائم مع المجتمع الصناعي المادي بالفعل ... هكذا يمكن أن تنقلب... الأثرة والإخاء إلى السلوك الجمعي غير المتعقل والمتكتل في مجموعات (شلل) تؤم المراقص وحفلات موسيقي روك آندرول، وحق تقرير المصير إلى فوضى خلقية (لاخَلقية) كما لمسنا في الصيحة التي ترددت سنوات في الغرب على ألسنة الدعيات الداعيات إلى تحرير المرأة وحقها في أن تفعل بجسدها ما تشاء مثل الإجهاض..(بطني لي وحدي)، وتنقلب حرية الفكر وعدم التحيز إلى إباحية مطلقة، والتسامح والسماحة إلى حيدة القيم، والتنافس المشروع إلى جنون الاستهلاك والحرص على متاع الحياة الدنيا، والمساواة إلى التسوية الآثمة التي لا تميز بين الخبيث والطيب والغث والسمين (عملا بالشعار: المهم هو الحاصل المماثل بدلا من تكافؤ الفرص)، ورهافة الحس إلى الولولة اليائسة، و تنقلب الحيطة والحذر إلى إحجام، وتنقلب التقوى والخشية إلى الفزع والجزع، والشهوة الجسدية المشروعة إلى جنون الجنس

---

١) نسف: قلع من أصله أو دك وذرى.

واستعراض المهارات الجنسية، وينقلب السعي الجاد النشط إلى استعباد العمل واستبداده للإنسان كدحا، وتنقلب المرونة إلى عداء أعمى للتراث أو لكل ما يعد تقليديا."

"بالاختصار، وكما سجل بحق مارسيل بوازو عام ١٩٨٤ فإنه لا مفر من حدوث تلك الرزايا المنكرة إذا اختل توازن أعمدة ثلاث أو مبادئ أساسية ثلاث: العقلانية والحرية والحب... هذه الأعراض المرضية المزمنة للوظيفة غير السوية أو التوظيف السيئ المشوه مألوفة على مسرح الأحداث في كافة الدول الصناعية اليوم".[١]

وفيما ذكرنا فوق من الإحصائيات -التي هي رشفة من ديمة- أدلة كافية على مدى الظلم الذي يتصف بها الغرب من ناحية ونفي القيم الأخلاقية تماما من مجتمعاته من ناحية أخرى.

من أجل كل هؤلاء الأمور نرى أن حضارة الرجل الأبيض آذنت بالرحيل لأنها قد استنفدت أغراضها المحدودة ولم يبق لديها ما تعطيه للبشرية من تصورات ومفاهيم ومبادئ ومثل تصلح لقيادة البشر وهدايتهم إلى سعادتهم ومرد ذلك- والله أعلم- أن تلك الحضارة كانت نتاج قيم محدودة في فترة خاصة وبقعة خاصة تواجه حالات محدودة وأوضاعا خاصة ولم تكن رصيدا إنسانيا عالميا يصلح للبقاء مدة أطول من الفترة التي عاشتها. فإن حضارة الرجل الأبيض حضارة كانت مشبوعة بجميع تلك المعاني والحالات التي تعادى فطرة الإنسان وتصادم

---

١) مراد هوفمان، **الإسلام كبديل**، ص ٢٧-٢٨.

فطرة المجتمعات وتنافي سلوكيات الإنسان الطبيعية حضارة كانت مبتوتة عن الأصل الكبير.. ذلك الأصل الاعتقادي المرتبط بالإيمان بخالق هذا الكون والمرتبط بالتفسير الكلي الحقيقي الواقعي للوجود وهي لذلك لم تراع يوما ولا تراعي فيما سيأتي حاجات الإنسان الحقيقية المنبثقة من طبيعة تكوّنه واصل خلقته وحقيقة فطرته[1] النابعة من كيانه المادي والروحي. فهي غير موافية لأية من متطلباته الجمة الخلقية والروحية.[2]

٦- نوعية الحضارة التي تنتظرها الإنسانية المعاصرة

إن صرخات وعويلات الشكاوى من الحضارة المعاصرة التي تهدد الإنسانية جمعاء بل الأحياء جميعا بل كوكبنا الذي نعيش عليه بمن على ظهره بالفتك والدمار تلك الصرخات تطبق المسامع وتكاد تصم الآذان وتعمي الأبصار وليست من المسلمين فحسب بل من الغربيين أنفسهم أيضا أكثر حتى إن البعض من الغربيين أدرك هذه الحقيقة في بداية القرن العشرين يقول شبنجلر (Shpengler): "هذا العالم مضطر إما أن يصلح من شأن نفسه وإما أنه ذاهب إلى الدمار" وقد

---

١) فكري أحمد نعمان، **النظرة الاقتصادية في الإسلام**، دار القلم، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٥، ص ١٦٧ مع تصرف.

٢) انظر محمد خليل جيجك، **أضواء على سورة الملك ويليه بعض جوانب الضعف الإنساني في أربع آي من سورة العنكبوت**، دار نشر جميل، الطبعة الأولى، إسطنبول ١٩٩٤. ص ٣٨-٣٩.

أسلفنا جملة من اعترافاتهم فيما سبق. فلهذا دلالة واضحة على أن الإنسانية محتاجة إلى نسق حضاري آخر وإلى طراز آخر من الحضارة:

(وحينما نعد مواصفات تلك الحضارة التي تنتظرها الإنسانية نذكر بعضا من تلك الأمور التي ترى أن صلتها بالحضارة في الدرجة الثانية وربما في الدرجة الثالثة ولكن ذكرنا ذلك لما نرى ونسمع ونعاني من آثارها السيئة العميقة في نفوس الشعوب في كثير من دول العالم الثالث وهي إما نتاج لتلك الحضارة المعاصرة أو بتوجيه من أبنائها القائمين عليها أو المرتضعين من ثديها أو بحض ضمني منهم فلذا ذكرناها رغما من أن مناسبتها بها في الدرجة الثانية والثالثة.)

أولى مواصفات تلك الحضارة المنتظرة أن لا تكون مبنية على جماجم الغير وبدمائه وأن لا تكون العقلية السائدة فيه "كيف نستغل الآخرين لصالحنا فقط" بل يلزم أن تكون حضارة تنقذ البشرية مما أصابها من الويل والبلاء من جراء تلك الأمور الضارة بها في المحيط الفردي والجماعي معا،

حضارة تهديها إلى سبل رشدها وصوابها، وتأخذ على يدها فيما يضرها في دينها وعرضها وعقلها ومالها ونفسها ونسلها، وتفتح لها جميع وسائل الرقي المادي من جانب، وتربيها على السموّ الروحي والشهامة الأخلاقية من جانب آخر بأن تدلها على كل الفضائل الإنسانية والكمالات البشرية التي تحتاج إليها دوم حياتها في عالم المادة والمعنى من جميع معاني الخير والبر والرحمة والهدى ومن كل ما يوثق

الوشائج و الصلات الاجتماعية بين أفراد المجتمع من القيم الروحية والأخلاقية التي تجعل الفرد متفاعلا مع الجماعة متربيا علي القيم الجماعية بحيث يصير الفرد جماعة والجماعة فردا. وعبر كل ذلك تعزز جميع تلك العلاقات والوشائج و المبادئ الأخلاقية بالقيم الروحية مهتمة إلى حد كبير بالسموّ الروحي وتربيته دائما ؛

حضارة تقدم إلى الإنسانية حب الإنسان قبل حب الكلاب والهرات - فالإنسانية المنصبغة بالصبغ الغربي تعاني اليوم في حب الإنسان أعظم الأزمات حيث يرى في الأوساط التي سيطرت عليها جو الحضارة الغربية أنه يترك حب الإنسان موقعه شيئا فشيئا لحب البهائم والحيوانات من مثل الكلاب والهرات-[1] (فما أفدح خسارة الإنسانية! وما أعظم ضررها!) ؛

حضارة تنير لها السبيل إلى التحلق[2] بالمجتمع في آفاق العلم والمعرفة، فاتحة لها جميع ميادين التفكير والتأمل والاستبصار، غير حاجزة لا على جانبها المعنوي ولا على جانبها الأخلاقي، غير مهتمة بأي من الجانب الروحي فقط أو المادي فقط على حساب الآخر ؛

---

١) هل تعلم أن عدد الكلاب التي يتمتع بحبها البريطانيون يصل إلى خمسة ملايين بينما أن عدد الكلاب التي حظيت بدفء حنان وحب الأمريكيين يصل إلى خمس وأربعين مليونا!

٢) التحلق: الارتفاع.

حضارة تربي في أبنائها روح القصد والوسطية والقوام في كل الأمور[1] وتجنبهم عن الإسراف والتبذير حتى في أبسط الأمور؛

حضارة تنمي فيهم روح المحبة والاحترام المتبادل والحفاظ على حقوق المخلوقات من الناس - سواء مؤمنوهم أو كافروهم- إلى البهائم إلى المتملكات الأخرى كل بحسبه بلا إفراط ولا تفريط، ولا إسراف ولا تقتير؛

حضارة ترسخ في المجتمع روح التعاون والتكافل والتآزر بحيث تجعل من المجتمع المتركب نسيجه من آلاف الخيوط المختلفة لونا ولغة وجنسا ومستوى كيانا واحدا كل يرى بأعين الآخرين ويسمع بآذانهم ويتفكر بقلوبهم، همّ الواحد همّ الكل؛ وهمّ الكل همّ الواحد؛

حضارة تطور في أبنائها روح الإيثار والتسابق نحو جميع المعالي والكمالات؛

حضارة تجعل من السعي في تعمير الأرض واكتساب طرق المعيشة وعبادة الله الواحد الأحد شيئا واحدا؛ شعارها عبر مجتمعاتها: "السعي عبادة والعبادة سعي"؛

حضارة تجعل العلم والمعرفة والتفكير السليم من أولويات مجتمعاتها ترى السعي في طلب العلم من أنواع الجهاد المقدس والموت في

---

١) انظر لدور القوام والوسطية في التحضر الإسلامي عبد المجيد النجار، مقال **الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامي**، **مجلة التجديد** عدد ١، سنة ١٤١٧٧/ ١٩٧٧، ص ٩٧-١٠٢.

سبيله شهادة ؛ تفضل في منظورها الاجتماعي العلم والتعلم على كثير من أنواع العبادات ؛

حضارة تكون مجتمعها رائدا في الخير، سباقا إليه، بثاثا لجميع أنواع البر والفضيلة على جميع الأصعدة البشرية، محافظا على السلم والسلام، ساهرا على الأمن والأمان مهما حل و ارتحل ؛

حضارة قائمة على نفع الآخرين بعيدة عن النفعية الذاتية والبراجماتية البشعة والاستغلاليات الجشعة، حريصة على رعاية الكرامات والحقوق في الحدود الملائمة لفطرة الفرد والمجتمع ؛

حضارة تجعل الناس سواسية في الاستفادة من الثروات العامة في البلاد ومن إمكانيات الدولة في جميع مجاري الحياة لا يستأثر بها قوم دون آخرين مهما علا منصبهم أو سمت مكانتهم أو كبر دورهم ؛

حضارة تجعل الدولة حارسة على أمن العباد والبلاد، ساهرة على مصالح العباد ومنافعهم وخيرهم ودفع الشر والفتنة عنهم فرادى وجماعات ؛

حضارة تهتم بنشر الأخوة والمحبة فيما بين عباد الله المؤمنين والعدل والعفاف والصلاح مع الآخرين ؛

حضارة تهتم برعاية الضعفاء والشيوخ والمرضى والمصابين والمساكين والزمنى في مجتمعه وتنمي في أبنائها عقلية المعاونة معهم والاحترام لهم ؛

حضارة تضيء السبيل للبشر كي يتعامل تعاملا صالحا نافعا رشيدا مع الطبيعة والكون الذي سخره الله لعباده كي ينتفعون به على الوجه الأقوم الأصلح، لا كي يتعرف منه على طرق الإبادة الجماعية، تعاملا يزداد به عطائهم في محاولاتهم التعميرية على وجه الأرض من غير سرف ولا ترف، تعاملا يزداد به مستوى كرامتهم وإنسانيتهم... فإن الحضارات إنما تقاس معطائيتها بمدى قدرتها على تحقيق إنسانية الإنسان وتنمية مواهبه وإطلاق ملكاته ورعاية قابلياته وتحقيق وعيه بذاته وانسجامه مع الكون والحياة و الارتقاء به ليحسن القيام بدوره في البناء الحضاري الذي يكرم الإنسان به ويكرّم[1]

وكل تلك المواصفات مما نجده بلا مغالاة ولا مبالغة في تلك الحضارة القرآنية الرشيدة التي قدمت للبشرية عن طريق الوحي منذ ألف وأربعمائة سنة.

فمع أننا ندرك حق الإدراك ما اخترعته حضارة الغرب للإنسان من الآلات النافعة والوسائل الناجعة والأدوات الشارحة والإمكانيات الصالحة وما قدمته للبشرية من الآليات الوفيرة التي رفعت من شأن الإنسان إلى حد بعيد وما أتت به من المناهج العلمية والمعرفية التي فتحت أمامه آفاقا فسيحة عميقة في كثير من المجالات التفكيرية والعلمية والثقافية و المعرفية والصناعية والاجتماعية ولكن إلى جنب هذا التطور

---

١) عمر عبيد حسنة، تقديم روح الحضارة الإسلامية لابن عاشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، فيرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٢، ص ١.

الهائل هناك ساحة وهي أهم الساحات لم تنجح فيها حضارة الغرب ولا يمكن أن تنجح فيها أبدا ألا وهي توازن الروح والنفس أو توازن المادة والمعنى -وقد أشرنا إلى ذلك قبل- ؛ ذلك التوازن الذي إنما به فقط يجد المرء كامل سعادته وبه فحسب يطمئن باله وينشرح صدره ؛ إن **محمد أسد** ينبئ عن بعض ذلك: إن الإنسان يخترع كل يوم آلات جديدة يعطي كلا منها بعض روحه كي ما تنافح في سبيل وجوده، وهي إنما تفعل كل ذلك حقا ولكنها في الوقت نفسه تأتي له كل يوم حاجات جديدة وأخطارا جديدة ومخاوف جديدة... وتضيع روحه في ضوضاء الآلة الجديدة التي تزداد مع الأيام قوة وجرأة وغرابة وتفقد الآلة غرضها الأصلي -أن تصون وتغني الحياة الإنسانية- وتتطور إلى إله قائم بذاته إلى صنم مفترس من فولاذ[1] فلهذا السير التقهقري في كيان الحضارة الغربية نصرّ على أن حضارة الإسلام الرشيدة لم تزل حضارة عالمية عديمة النظير بما امتازت به من شأن جوهري[2]، فيما تحوز وتتضمن من تلك القابلية الفذة في الجمع بين إصلاح ما ظهر من الحياة وما بطن، وفي إشباع أبنائها الشبع المادي والمعنوي، وفي الجمع بين العلم و الإيمان والكون والإنسان في الحدود الفطرية لكل منها بلا اعتداء من أي منها على الآخر. ولنخل المجال مرة أخرى لقلم **محمد أسد** ذلك الغربي

---

١) محمد أسد، **الطريق إلى الإسلام**، ص ٢٣٦.

٢) محمد الفاضل بن عاشور، **روح الحضارة الإسلامية**، ص ١٩ مع تصرف.

اليهودي الأصل يعبر عما فهمه من الإسلام فألجئ آخر الأمر إلى تبني الإسلام عقيدة ومنهج حياة:

"إن النظام الذي أعلنه النبي محمد صلى الله عليه وسلم في السنوات الثلاث والعشرين من رسالته لم يختص بالشؤون الروحية فحسب بل زود إطارا لكل نشاط فردي واجتماعي أيضا. إنه لم يبسط مفهوم الصلاح الفردي فحسب بل عرض أيضا مفهوم المجتمع العادل الذي يجب أن يوجده ذلك الصلاح لقد قدم مجمل المجتمع السياسي - المجمل فحسب لأن تفاصيل حياة الإنسان السياسية تتوقف على الزمن فهي لذلك عرضة للتبدل والتغير- كما قدم نظاما للحقوق الفردية والواجبات الاجتماعية، أخذ فيه بعين الاعتبار حقيقة التطور التاريخي. لقد شمل الشريعة الإسلامية الحياة من جميع وجوهها، المعنوية والجسدية، الفردية والمجتمعية، وكان لمشاكل الجسد ومشاكل العقل، ولمشاكل الجنس والاقتصاد، جنبا إلى جنب مع مشاكل الدين والعبادة مكانها الحقيقي، مكانها الصحيح (أي حلولها الصالحة) في تعاليم محمد (صلى الله عليه وسلم).[1]

إن كل تلك الطاقة العجيبة التي تملكها الحضارة الإسلامية لمسايرة الزمان والمكان إنما كان لنزولها باعتبار منابعها ومصادرها من لدن حكيم خبير مسبح عن الزمان والمكان مقدس عن التقيد بالظروف والأحوال، محيط علمه بما كان وما سيكون وما هو كائن إلى يوم القيمة.

---

١) محمد أسد، **الطريق إلى الإسلام**، ص ٢٤٣.

فالحضارة التي استمدت منابعها عن تعاليم دينه تكون حضارة فوق الزمان وفوق المكان غير مقيد بحدود الظروف والأحوال بما تحتوي عليه من القيم والتعاليم والمبادئ والغايات والوسائل والأهداف...

إن الإنسانية التي لم تفقد في ضوضاء[1] وصخوب هذه الحضارة وعيها وفهمها ملت وسئمت من الحضارة المعاصرة لخلوها وفراغها من جميع الإشباعات المعنوية وتركها الإنسان كموجود مهمل على قارعة طريق الطبيعة لا حد له ولا قيد ولا معين له ولا مغيث[2] تنهشه الأحداث والكوارث نهشا وتتقاذف به موجات الحياة العارمة من جانب إلى آخر ومن شاطئ إلى آخر فهو كما قال القائل في باب آخر:

فكيف يداري والهوى قاتل الفتى ❖ وفي كل يوم روحه يتحطم

فنرى من هنا وهناك الهتافات تعلو على الصعيد العالمي كي تصرخ وتعلن أن الإنسانية البائسة المتئنة تحت مخالب الحضارة الغربية محتاجة كأكثر ما يكون إلى الحضارة الإسلامية[3] وقد نقلنا بعضا من تلك الصراخات فيما مضى. كل هذا يجري إلى جنب ما يعقبه الغرب ضد الإسلام والمسلمين من سياسة لئيمة معادية بحيث لا يعدل العالم

---

١) الضوضاء: الصياح والجلبة.

٢) انظر لبعض مساوئ هذه الحضارة المعاصرة: محمد خليل جيجك، أضواء على سورة الملك، ص ٣٨-٣٩.

٣) انظر على سبيل المثال لا الحصر آ. تونبي كتابه السابق، ص ١٩٤-٢٠١، و جارودي الكتاب السابق، ص ٢٧، ١٥١-١٥٤ وكتاب جارودي Entegrizim Türkçe çev. Kamil Bilgin Çileçöp Pnar yay. 2ç bas. Ýst. 1993 s. 102*104.

الإسلامي بضخامة جسمه عنده جنح بعوضة. فضلا من تلك الألاعيب والمناورات المظلمة التي تدبر ضد الإسلام والمسلمين خلف الأبواب المسدودة! فهذه السياسة العدوانية ضد الشعوب المسلمة من شأنها أن تثير في الجامعة الإسلامية النخوة والحمية والحماسة لأن تتحرك وتسعى كي تؤتى ببديلها الحضاري من جديد لإنقاذ نفسها خاصة والإنسانية عامة من مخالب تلك المدنية المزخرفة الصالحة ظاهرا الغاشمة الأثيمة البالية باطنا.

تجاه هذا الواقع الذليل المرير الذي يضغط على المسلمين كثيرا وتزداد ضغوطه يوما فيوما يتحتم على المسلمين عامة وعلى علمائهم ومنوريهم و مثقفيهم خاصة أن يهتموا بشكل حثيث بكشف هوية الحضارة القرآنية وسبر أغوارها[1] من جديد كي يقدموا لهذه الإنسانية التعسة البائسة الحضارة القرآنية في ثوبها القشيب بما تجمع في روحها من عوامل التطور والتقدم والرقي المادي من جانب ومن جميع تلك الفضائل الإنسانية و المعاني السامية والكمالات الأخلاقية التي أقفرت أرض الإنسانية منها من أمد بعيد منذ أن هيمنت الحضارة الغربية على قطاعات البشر من جانب آخر.

فاستشعارا بهذه المسؤولية الضخمة ركزنا فكرتنا على نظرة القرآن الحضارية أما صورة الحضارة القرآنية من خلال آياته وأوامره

---

١) السبر: الامتحان؛ الغور: القعر من كل شيء وأقصاه؛ فسبر أغوار الشيء بمعنى محاولة فهم الأقصى منه.

ومناهيه فظاهرة باهرة لكل ذي لب له إلمام بالقرآن، غنية عن البيان لا يجهلها إلا من كان على قلوبهم أقفالها وكتب في ذلك الكثير الكثير ولله الحمد والمنة فحاولنا نحن بدورنا أن نلتقط من هنا وهناك سمة القرآن الحضارية في جانب آخر من جوانبه فرأينا أن تلك القسمة[1] الحضارية القرآنية تبرز بصورة واضحة من خلال تسمية سور القرآن بأسمائها.

ومستندنا في ذلك كما يلي: انطلاقا من أن القرآن تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأنه نزل هدى ورحمة لقوم يؤمنون يعلم قطعا أن أي شيء ما من القرآن لا يخلو من وجه حكمة ورحمة للمؤمنين و بشرى وهدى للمسلمين: من انتقاء الحروف و الكلمات إلى انتقاء الجمل والهيآت إلى ترتيب الجمل والكلمات إلى ترتيب المقاطع والآيات، إلى ترتيب الأجزاء والسور، إلى أسمائه، وأسماء السور، إلى جميع ما يلابسه ولكن رغما من أن وجه الحكمة ونظرة القرآن الشمولية الحضارية ظاهرة من خلال أسماء سوره ككل مجموعي متراص منضم بعضها إلى بعض في صعيد واحد لم نر من تعرض لذلك بوجه مستوعب سوى جمل قلائل أشار إليها البعض من السلف والخلف وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

وقبل الخوض في غمار ما كنا بصدده رأينا أن نلم بكلمة- ولو تكون قصيرة- حول عالمية القرآن بما فيه حضارته ورسالته وأحكامه فإن

---

١) القسمة بكسر السين وفتحها: الحسن.

لها صلة وثيقة بما نحن بصدده حيث إن عالمية القرآن وصف مغط شامل لأكثر من جانب واحد من جوانبه كما أن عالمية تلك النظرة الشمولية المستنبطة من خلال أسماء سور القرآن داخلة في عالميته العامة المطلقة فمن هنا كان لزاما علينا أن نبين عن عالميته ولو بإيجاز. علما منا أن هذا الموضوع موضوع باكر لم تدخل فيه بعد الأقلام البليغة البارعة ولم تنجز فيه بعد الإنجازات البديعة الرائعة. كما أننا بمن الله وفضله على وشك أن ننتهي من الموضوع في صورة كتاب مستقل تناول الموضوع تناولا شاملا وافيا حسب بضاعتنا المزجاة. وما هنا ليس إلا كنواة لذلك العمل. وكل ما بنا من الحسنات منه وبمنه وإحسانه، فله الحمد كما ينبغي لكريم امتنانه وعظيم سلطانه.